الفصل الحادي والعشرون

مستوى المعيشة

كان يكفي الرجل من عامة الناس هو وزوجته في عصر الرشيد ثلاثمائة درهم في السنة[1]؛ وكانت الثروة التي تبلغ سبعمائة دينار تعتبر ثروة غير قليلة[2]. ويحكى عن أحد أبناء العمال أنه أضاع ثروته على بعض المغنيات، ثم مات خادم كان مولى لأبيه وابن عم في يوم واحد فحصل له من تركتهما أربعون ألف دينار، فعمر داراً بألف دينار، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجواري بسبعة آلاف دينار؛ وسلم لتاجر ألفي دينار يتجر له فيها، وأودع في بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد، وابتاع بالباقي ضيعة تُغِلُّ في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته[3].

وقد كشفت لنا حفائر سامرا عن طريقة بناء الدور عند أهل العراق في القرن الثالث الهجري، «فقد كانت الدور بسامرا تُبنى على مثال واحد: يصل بينها وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف يفضي إلى صحن واسع قائم الزوايا يبلغ عرضه ثلثي طوله في العادة، ويتصل به من جانب العرض القاعة الكبرى وصورتها هكذا ⊥، وفي أركانها غرف صغيرة، ويحيط بالصحن أيضاً غرف متجاورات مربعة للسكنى وللمرافق المنزلية، وفي معظم الدور أفنية صغرى ثانوية تشتمل على أماكن للمرافق المنزلية أيضاً. ولا تخلو الدور قط من حمامات ومجاري تحت الأرض، وكثيراً ما يكون فيها آبار . . . . وتشتمل أحياناً على صحون ذات أساطين tarmah's وعلى سراديب للسكنى مهيأة بوسائل التهوية، والدور كلها

---

(١) مصارع العشاق ص ١٥٩ . (٢) نفس المصدر ص ٥ .

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ٢ ص ١٧ .

من طابق واحد ، وإذا كانت الأرض المحيطة بها غير مستوية اتخذ منها أصحاب الدور مسطحات مرتفعة بمهارة لهم فى ذلك ، وقد يبلغ عدد الغرف فى الدار الواحدة ستين غرفة ، وبها شبابيك تقفل بألواح من الزجاج المتنوع الألوان ، ويتراوح عرض اللوح بين العشرين والخمسين سنتيمترا »[١] .

ولا نجد فيما بين أيدينا من أخبار القرن الرابع بالعراق ما يدل على استعمال السراديب للسكنى فى فصل الصيف ، ولا تشير لذلك أية حكاية من الحكايات الكثيرة التى ترجع إلى ذلك العصر[٢] . ويرجع أصل هذه العادة — عادة اتقاء الحر الشديد بالنزول فى السراديب — إلى بلاد آسيا الوسطى حيث يحكى لنا الرحالة وانج ين تى Wang yen te فى عام ٩٨١ م أن بعض أهل تلك البلاد يسكنون فى الصيف غرفا تحت الأرض[٣] . أما فى بلاد الإسلام لذلك العهد فقد كانت مدينة زَرَنْج ، أكبر مدن سجستان ، ومدينة أرّجان بفارس أول مدينتين اتخذ أهلهما فى الصيف سراديب تحت الأرض يجرى فيها الماء[٤] . وفى القرن الخامس الهجرى يذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو أن من خصائص مدينة أرجان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها ، وأن الماء يجرى تحت الأرض وفى السراديب ، وفى أشهر الصيف يستروح الناس فيها[٥] .

---

(١) Sarre und Herzfeld, Erster vorläufiger Bericht uber die Ausgrabungen von Sāmarra, Berlin, 1912, S. 14.

(٢) كان السرداب فى ذلك العصر عبارة عن مكان تحت الأرض ، فيحكى مثلا أن الخليفة المقتدر أمر بحفر سَرداب لمؤنس ، وأن مؤنسا وقع فيه ومات (كتاب العيون ص ١١٤ ب) ؛ وكان عند رجل فى داره سرداب تحت الأرض عليه باب من حديد (غريب ص ١٠) . بل يحكى أنه فى عهد المنصور سير جماعة من أبناء على إلى الكوفة « وحبسوا فى سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل » (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٣) JRAS, 1898, p. 819. (٤) ابن حوقل ص ٣٠٠ .

(٥) سفرنامه ص ١٣٦ من طبعة برلين .

ويذكر المقريزى بعد ذلك بقرون أن من محاسن مصر أن أهلها لا يحتاجون فى حرّ الصيف إلى الدخول فى جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد[١] . وكان أهل الترف فى ذلك العصر يستعيضون عن دخول السراديب بنصب قبة الخيش أو بيت الخيش . وكانت عادة الأكاسرة أن يُطيَّن سقف بيت فى كل يوم صائف فتكون قيلولة الملك فيه ، وكان يؤتى بأطباق الخلاف طوالا فتوضع حول البيت ، ويؤتى بقطع الثلج الكبار فتوضع ما بين أضعافها ، وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً ؛ ولكن فى عهد المنصور العباسى اتخذت طريقة أخرى للتبريد ، فكانوا ينصبون الخيش الغليظ ولا يزالون يبلونه بالماء فيبرّد الجو[٢] . وكان الخيش ينصب على قبة ، ثم اتخذت بعدها الشرائح فاتخذها الناس[٣] . ويحكى المقدسى أنه رأى فى دار عضد الدولة بشيراز بيوت الخيش يبلها الماء على الدوام بواسطة قُنى حولها من فوق[٤] ؛ ويظهر أن هذه الطريقة فى التبريد كانت شائعة جدا فى بغداد ، حتى يحكى عن أحد القواد فى القرن الرابع أنه لم يَرَ فرقة من الجند أتت من بغداد أهلا للقيام بغزوة هامة لأنهم فى رأيه قد ألفوا بيوت دجلة وشرب النبيذ والثلج وبيوت الخيش المبلل وسماع القيان[٥] . وكان يستعمل فى هذه البيوت الصيفية مروحة تشبه شراع السفينة ، تُعلّق فى سقف البيت ويُشَدّ بها حبل يديرها ، وهى تُبَلّ بالماء وتُرَشّ بماء الورد ، فإذا أراد الرجل أن ينام وقت القائلة جذبها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجئ ويهب منها نسيم بارد طيب[٦] . وكانت حرّاقات

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤١٨ ، وكتاب الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٩٩ فى أبيات لشاعر فى عهد عبد الله بن طاهر .

(٣) لطائف المعارف للثعالبى ص ١٤ من طبعة ليدن .

(٤) المقدسى ص ٤٤٩ .

(٥) De Goeje, Carmathes, p. 218. نقلا عن ابن مسكويه .

(٦) مطالع البدور للغزولى ج ١ ص ٦٥ ، ويدل على استعمالها فى القرن الرابع ما ذكر عن السرى .

دجلة التى يستعملها رجال الدولة فى غدوهم ورواحهم يُعَدّ فيها الثلج ، ويعلّق عليها الخيش المبلّل بالماء ، وكانت ترخى على الخيش ستور الكرابيس[١] . وكان أهل بغداد ينامون فى ليل الصيف على سطوح البيوت[٢] . أما فى مدينة آمل فكانت السطوح مسنّمة لكثرة الأمطار صيفاً وشتاء[٣] . أما فى اليمن فكان الغالب على صنعاء البرد ، حتى كان إذا اشتدّ بها الصيف ودخل الرجل ليقيل على فراشه لم يكن له بدّ من أن يتدثّر ؛ لأن البيوت باردة بسبب القصة التى تسيع بها بواطن البيوت ، وربما دخل الرجل فى المخدع على فراشه وأطبق عليه الباب وأسبل السترين والسجف فلا يتغير ضياء البيت لما فى الجدران والسقف من الرخام ، بل إذا كان فى السقف رخامة صافية نظر عوّم الطائر بظلّه عليها إذا حاذاها ، وتؤدى الرخامة لمعان الشمس إلى القصة فتقبلها بجوهرها و بريقها[٤] .

وحوالى منتصف القرن الثالث الهجرى أحدث المتوكل بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيرى ، وصار متبعاً فى القصور الكبيرة ؛ فصار يُبنى لها مُقَدَّم أو ثلاثة أجزاء أوسطها الباب الأكبر ، وإلى جانبيه البابان الصغيران (ويسميان عند العرب الكمّين) . وكان المتوكل يجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه ؛ وقد اتبع الناس المتوكل ائتماما بفعله حتى

---

(١) جمهرة الإسلام للشيرازى ص ١٩٩ أ من مخطوط ليدن ؛ والمحاسن والمساوى للبيهقى ص ٤٤٧ .

(٢) يدل على هذا ما حكاه معظم المؤرخين من ظهور حيوان يسمى الزبزب فى عام ٣٩٤ هـ كان بحسب زعم الناس يأكل الأطفال بالليل من على السطوح ؛ وما كان حيوانا بل وهما نشأ من وجود اللصوص . ويقول ابن الجوزى (المنتظم ص ١٨ أ — ب) . إنه فى تموز من عام ٣٠٨ هـ « برد الجو حتى نزل الناس من السطوح وتدثروا باللحف » .

(٣) الأصطخرى ص ٢١١ .

(٤) كتاب صفة جزيرة العرب لأبى محمد الحسن بن أحمد الهمدانى طبعة ليدن ج ٦ ص ١٩٦ .

اشتهر هذا البناء[١] ، وهو يسمى الحيرى نسبة إلى الحيرة أى أنه هيلينى الأصل . وقد جاء فى التقرير المتقدم عن حفائر سامرا أن الباب الأوسط كان يزيد على البابين الجانبين فى الارتفاع والاتساع ، فهو منقول عن طريقة الهيلينيين (المتأثرين بالحضارة اليونانية المتأخرة) فى بناء أبواب الشوارع وأقواس النصر[٢] . وكان قصر التاج الذى بُنى فى بغداد بعد ذلك بأربعين سنة صورة مكبّرة للطراز الحيرى ، فكان وجهه مبنيا على خمسة عقود كل واحد منها على عشرة أساطين والأسطوانة خمسة أذرع[٣] . وكذلك كان وجه قصر ابن طولون بمصر ثلاثة أبواب كأكبر ما تكون الأبواب ، وكانت متصلة بعضها ببعض ، وكانت تفتح كلها فى يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم الصدقة ، وفيما عدا ذلك لم تكن تفتح إلا بترتيب معلوم فى أوقات معروفة[٤] . وقد نقل ابن طولون هذه الصورة فى البناء كما نقل صورة مئذنة مسجده ، عن بغداد . وكانت دار الخلافة وما يتصل بها كأنها لِكبَرها مدينة قائمة بذاتها ؛ ويحكى الأصطخرى أن قصور الخلافة و بساتينها تفترش مساحة كبيرة ، وتمتد الجدران المحيطة بها فراسخ كثيرة[٥] . وكانت دور الكبراء تتألف من قصور كثيرة ؛ ويحكى عن الوزير أبى الحسن بن الفرات أنه أنفق على الدار التى كان ينزلها فى وزارته الثانية ثلاثمائة ألف دينار ، واشتهى فى وزارته هذه أن يجمع حُرَمَهُ و بنات إخوته وأصاغر ولده فى الدار المعروفة بدار البستان

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٦٦ ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٧ ص ١٩٢ ، ١٩٣

(٢) انظر ص ٣٤ من التقرير المتقدم ؛ وانظر أول هذا الفصل ؛ وقد سميت الضاحية الشرقية من ضواحى بغداد ، وهى التى يخرج منها طريق الجيوش نحو فارس ، بالأبواب الثلاثة لمثل هذا النوع من البناء .

(٣) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٠٩ من الطبعة الأوروبية .

(٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣١٥ .

(٥) الأصطخرى ص ٨٣ ؛ وقد حكى رجل طاف دار الخلافة عامرها وخرابها وما يجاورها ويتاخمها حوالى آخر القرن الرابع ، فقال إنها مثل مدينة شيراز (تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٤٩) .

من الدار الكبرى ، فأمر بإصلاحها وتنظيفها وإنفاق ما يحتاج إليه فى إعدادها ، فبلغت النفقة خمسين ألف دينار[١] . وكان يلى الأبواب من داخل القصر البَهْوُ[٢] ، وهو مُقدّم الدار وأعلاها بناء ، ويقف شامخا تزينّه الشرفات . يقول ابن المعتز فى وصف قصر الثريا[٣] :

حَلَلْتَ الثريّا خيرَ دار ومنزل فلا زال معموراً وبورك من قصر
وبنيان قصر قد عَلَتْ شرفاته كصفِّ نساء قد تربّعن فى الأزر

وكان قصر الخلافة يشتمل على دور وبساتين ومسطّحات مظلّلة بالأشجار ، وعلى قباب وأروقة ، وكانت تزيد فى جماله البرك والأنهار الجارية . ويُحكى عن الخليفة القادر أنه كان يجلس فى البيت المعروف ببيت الرصاص ، وبين يديه نهر يجرى فيه الماء إلى دجلة[٤] . وكانت الأروقة تسمى بالأربعينى أو الستينى أو التسعينى بحسب الغلمان أو الحرس الذين يجتمعون فيها[٥] ، وكان من بين القباب قبة الأترجّة[٦] ، وقبة الحمار[٧] . وكان الأمراء إذا جاءوا إلى دار الخلافة دخلوها راكبين حتى إذا وصلوا إلى الموضع الذى ينزلون فيه ترجّلوا ودخلوا والحجاب بين

(١) كتاب الوزراء ص ١٧٩ .
(٢) انظر هذه الكلمة عند الجوهرى ، وحكاية أبى القاسم طبعة متز ص ٣٦ .
(٣) الديوان ج ١ ص ١٥ . (٤) كتاب الوزراء ص ٤٢٠ .
(٥) وكان الغلمان يسمون بذلك بحسب طول شهر راتبهم الذى كان أحيانا أربعين أو ستين أو تسعين .
(٦) ابن مسكويه ج ٥ ص ٣٢٤ . وتاريخ سنى ملوك الأرض لحمزة الأصفهانى ج ١ ص ٢٠٤ ؛ وديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٨ سطر ٦ ، وهو قوله : والقبة العليا والأترجة .
(٧) المنتظم لابن الجوزى ص ١٦٠ ب ؛ وهى التى يقصدها ابن المعتز بقوله : والقبة العليا ؛ ويقال إنها سميت بذلك لأن الخليفة كان يستطيع أن يصعد إلى أعلاها راكبا على حمار ، ولكن هذا لم يرد إلا عند ياقوت (معجم البلدان ج ١ ص ٨٠٦ من الطبعة الأوروبية) ، ويظهر أنها حكاية موضوعة ، وهى تشبه ما حكى عن منارة الإسكندرية من أنه كانت معلقة بها مرآة يجلس الرجل تحتها فيرى من بالقسطنطينية ، وبينهما عرض البحر ، وأن الفرس والفارسين يركبان إلى أعلاها بنير درج (ابن خرداذبة ص ١٠١٤) .

أيديهم[١] . ويذكر الكتاب المتأخرون أنه كان هناك سراديب تصل القصور بعضها ببعض ، فيحكى ناصر خسرو أن قصور الفاطميين كانت مؤلفة من بيوت كبرى وصغرى تصل بينها سراديب تحت الأرض[٢] . ولكننا لا نجد فى الحكايات الكثيرة المفصلة التى ذُكرت عن القصور ذكراً لهذه السراديب التى يدخل منها الناس أو يخرجون بحيث لا تراهم الأعين ، فأمرها لا يخلو من مبالغة .

وقد رأى المقدسى قصر عضد الدولة بشيراز بعد موت هذا السلطان بقليل ، وحكى رئيس القراشين للمقدسى أن فى القصر ثلاثمائة وستين حجرة كان السلطان يجلس كل يوم فى واحدة إلى الحول[٣] . وكان يقال إن بمنارة الإسكندرية ثلاثمائة وستة وستين بيتاً دائرة بها[٤] . وكان بقصر Eldenburg بمدينة مارك برندنبرج Marke Brandenburg من الحُجَر بقدر عدد أيام السنة[٥] .

وقرب أواخر القرن الثالث الهجرى نجد ضروباً من التفنن فى إعداد القصور تنتقل من بلاط إلى آخر ؛ وكأنما كان ذلك مقروناً بابتداء التكلف والصناعة فى الأدب ؛ فكان فى قصر الطولونيين بمصر بركة من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وعرضها خمسون ، وكان فى أركانها أساطين من الفضة الخالصة فيها زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضة ، وعُمِل لخمارويه فرش من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه ويلقى على تلك البركة ، وتشدّ زنانير الحرير التى فى حلق الفضة بالأساطين ، ثم ينام الأمير على ذلك الفرش ، « وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية ، فكان يُرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا تألّف نور القمر بنور الزئبق »[٦] .

---

(١) المنتظم ص ١٦٠ أ .

(٢) رحلة ناصر خسرو ص ١٢٩ ، ١٥٨ ؛ وذكر ذلك المقريزى ، (الخطط ج ١ ص ٤٥٧)

(٣) المقدسى ص ٤٤٩ . (٤) ابن خرداذبة ص ١١٤ .

(٥) Fontane, Fünf Schlösser, S. 96. (٦) الخطط المقريزى ج ١ ص ٣٦٧

ويحكى أن الخليفة المقتدر بالله لما وفد عليه رسل ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ — ٩١٧م زيّن قصره ورتب آلته فيه ثم أدخلهم إليه ، فرأى الرسل فيه العجب ، ثم أخرجوا إلى « الجوسق المحدَث » . وكان داراً بين بستانين في وسطها بركة رصاص حولها نهر رصاص « أحسن من الفضة المجلوة » ، وطول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، وكان فيها أربع طيارات لطاف مذهبة مزينة بالدبيق المطرّز ، وأغشيتها دبيق مذهب[١] .

« وقد ظهرت بمدينة رومة في عصر أوغسطوس Augustus عادة إنشاء البساتين على الطريقة المسماة بالمصرية ، وهي في العصر القديم تشبه على وجه التقريب ما صار يعرف فيما بعد بالبساتين الإنجليزية ، وكان في ذلك ردّ فعل ضد نظام إنشاء البساتين على نحو يجعل البيوت كأنها جزء من الحدائق المحيطة بها أو جزء من الطبيعة الخضراء بما كان في ذلك النظام من صلابة في مراعاة طريقة العمارة »[٢] .

ولما أسس أمير الأندلس الناصر لدين الله الأموي مدينة الزهراء التي قال بعض المؤرخين إنه لم يُبْنَ في الإسلام أحسن منها ، عمل فيها أيضاً بحيرة ملأها بالزئبق[٣] .

وقد أولع خمارويه فوق ما تقدم بالأزهار ، وهذا الولوع من صفات الترك ؛ فصار خمارويه بذلك كله أكبر منشئ البساتين بين أمراء الإسلام ، ذلك أنه أقبل على بستان أبيه فزاد فيه ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه فجعله كله بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، ونقل إليه النخل اللطيف الذي ينال

---

(١) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٣ .

(٢) V. Gleichen-Russwurm, Elegantiae, S. 387.

(٣) [illegible] طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٨١ (عام ٣٢٥ هـ) .

ثمره القائم ، ومنـه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعّم العجيب وأنواع الورد ، وزرع فيـه الزعفران ، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة ؛ يتعاهدها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، وزرع فيـه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوى العجيب ، وأهدى إليه من خراسان كل أصل عجيب ، وطعّموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك مما يستظرف ويستحسن ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة[1] ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبّر ، فكان يخرج من تضاعيف قوائم النخل عيون الماء وتنحدر إلى مساق معمولة ، ويفيض منها الماء إلى مجار تسقى سائر البستان ، وبنى فيـه برجاً من خشب الساج[2] ، فكانت هذه الفوّارات والبرك والعيون المائية الصناعية — على طريقة المصريين القدماء فى عمل البساتين — إلى جانب أبراج الخشب مما يزيد البستان جمالا . وكانت فكرة إنشاء بستان على الطريقة الإنجليزية بعيـدة كما كانت بعيدة عن أهل العصر القديم ، بحيث أن أحد حكام مصر — وكان من أكبر المولعين بإنشاء البساتين — جعل جميع دهاليز بستانه مغطاة بالحصر العبّادانية[3] . وكذلك كان بالجوسق المحدث فى قصر المقتدر بركة رصاص حولها بستان بميادين فيـه نخل قيل إن عدده أربعمائة نخلة ، وطول كل واحدة خمسة أذرع قد لبس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الجمّارة بحلق من شبه مذهبة[4] .

وكانت لذة الخليفة القاهر من الدنيا بستانه الكبير الذى غُرس فيه النارنج

(١) هذا ضرب من الذوق العرقى القديم ، وكان ملوك الفرس من قبـل يجلسون الى الناس تحت أشجار قد كسيت أجسامها بالفضة .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣١٦ . (٣) نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٧ .

(٤) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٣ — ٥٤ .

وحمل إليه مما حمل من أرض الهند ، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره ، وكان فيه أنواع الأطيار ، وكان الخليفة كثير الجلوس والشراب فيه وهو يقول عنه : وكان لذتى من الدنيا[1] . وحوالى ذلك العصر كان بالشام الصنوبرى وكشاجم شاعرين من شعراء الطبيعة تغنيا فى شعرهما بجمال البساتين والأشجار والأزهار ؛ ولكن الأزهار لم تكن كثيرة جدا : كان هناك الورد والنرجس والشقيق والباقلاء والكافور والبهار والأقحوان والسوسن والبنفسج والياسمين والخيرى والنوار ، ولم يكن الخيرى البرى قد جلب من سهول آسيا . وكانت زراعة الورد متقدمة جدا ، فقد حكى صاحب نشوار المحاضرة (المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م) أنه رأى وردا أسود حالك السواد له رائحة زكية ، وأنه رأى بالبصرة وردة نصفها أحمر قانى الحمرة ؛ ونصفها الآخر أبيض ناصع البياض ، والورقة التى وقع الخط فيها كأنها مقسومة بقلم[2] ، وكان النخل والسرو هما الشجرتين اللتين تزرعان فى البساتين .

وكان ابتداء هذا الميل الشديد إلى البساتين والولوع بها فى مصر ، وفيها استمر على أقوى ما يكون طوال ذلك العصر ، فيحدثنا الرحالة الفارسى ناصر خسرو أنه رأى بمصر ناساً يتجرون بالأشجار ، وأن عندهم أشجاراً فى أصُص يضعونها على سطوح بيوتهم حتى تصير السطوح كأنها حدائق ، فإذا اشترى أحد هذه الأشجار حُملت إليه ثم حُفر لها فى الأرض ، ونقلت من أصصها دون أن يصيبها شىء ؛ ويقول ناصر خسرو إنه لم ير مثل هذا فى مكان آخر ولم يسمع به ، ويُحكى أنه كان بمصر يهودى كثير المال قد وضع على سقف داره ثلاثمائة جرة

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ٣٣٦ — ٣٧٨ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٣٧ .

من الفضة ، في كل منها شجرة مزروعة ، وكل هـذه الأشجار مثمرة محملة كأنها بستان(١) .

وكان في دار الشجرة من قصر المقتدر بالله شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، وهي تقوم وسط بركة مدورة صافية الماء ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب ، وهي تتمايل في أوقات لها ، وللشجرة ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريحُ ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر ، وقد أدخل الخليفة رسل الروم إلى هذه الدار فكان تعجبهم منها أكثر من تعجبهم من جميع ما شاهدوه(٢) . على أنه كان بقصر الإمبراطور بالقسطنطينية كثير من قطع الأثاث حول عرش الامبراطور ، عليها طيور جاثمة تغني ، وقد رآها وسمع تغريدها الأسقف لويتبراند Luitprand رسول الملك أتو Otto ملك ألمانيا . بل لقد كان حول عرش إمبراطور الروم كثير من السباع المذهّبة تحف بالعرش . وكانت في أثناء استقباله الناس تفتح أفواهها بين حين وآخر ، وتزأر وتضرب الأرض بأذنابها ، وفوق ذلك كان العرش الإمبراطوري مصنوعاً بحيث يمكن رفعه بآلة إلى سقف المجلس(٣) . وهذا ضرب من الذوق الفاسد البعيد عن طريقة الشرقيين . وقد ذكر ابن المعتز الشاعر الأمير هذه الشجرة في شعره(٤) .

وكان لمعظم الدور ببغداد كواشك ورواشن في الطابق الأسفل يصطدم بها راكب الحمار إن لم يتنبه لها(٥) . وكان يستتر بها أهل العبث والفساد حتى اشتهرت

---

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٨٠ ، ٨٨ من النص الفارسي .

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٢ وما بعدها .

(٣) J. Ebersolt, Le grand palais de Constantinople, Paris, 1910, p., 68.

(٤) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٨ .　　(٥) حكاية أبي القاسم ص ٣٣ .

بذلك[١] . وكانت الشوارع بمدينة شيراز ضيقة لا تتسع لسير بهيمتين معاً ، وكان أهلها فى بلاء من اصطدام رءوسهم بالرواشن[٢] .

وكانت أبواب الدور تصنع من الخشب المحلى بالنقوش ، وعلى الباب حلقة تدور بلولب يُطرق بها الباب[٣] ، وبالجملة كان الخشب يستعمل كثيراً ، وكان أحب أصنافه عند السراة خشب الساج الهندى ، ولكثرة استعمال الخشب كانت الغرف من داخلها تكاد تثير الانقباض مثل دور الفلاحين عندنا ، وإذا رأى الإنسان الحجرة المحفوظة فى متحف القاهرة أحدثت رؤيتها فى نفسه مثل هذا الأثر .

ولم تكن العادة أن يملأ كل فراغ الحجرات بالأثاث ، فكان يبقى فيها مجال لظهور الناس ولحركاتهم وللابسهم ، وفراغ للستور والبسط المعلقة على الحيطان تتنافس بألوانها وما عليها من جميل الصور . وكانت التخوت هى الأثاث الوحيد فى الغرف ، فكانت تحفظ فيها الثياب مثلا[٤] أما الدواليب لم تكن معروفة ، وكانت الخوانات لا تستعمل إلا للطعام . وكان كبراء القرن الثالث يحبون الخوانات المصنوعة من خشب الجزع ، وكذلك بعض أدوات المائدة[٥] ؛ ثم استخدمت خوانات قوائمها منها بلا وصل[٦] ، وقد ورد فى كتاب ...

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ٢٥٣ ؛ وجمهرة الإسلام مخطوط ليدن رقم ٢٨٧ ص ٧٧ أ . (٢) المقدسى ص ٤٢٩ .

(٣) مقامات الهمذانى طبعة بيروت ص ١٠٥ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٧٢ ؛ ويتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٢٧ ، ومروج ... ج ٢ ص ٢٠ .

(٥) كتاب البخلاء للجاحظ طبعة فان فلوتن ص ٥٧ ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ٢٦٩ .

(٦) مقامات الهمذانى ص ١١٣ ؛ وحكاية أبى القاسم ص ٣٨ ؛ والخطط للمقريزى ج ١ ص ٤١٩ .

أبي القاسم البغدادي وصف خوان حسن ؛ قوائمه من خلنج خراساني بلا وصل ، ثم صار حجم هذه الخوانات يزداد باستمرار ، حتى يحكى أنه لما ظهر المقتدر بعض ولده عام ٣٠٥ هـ — ٩١٧ م ؛ أهدى إلى ابن الفرات ثلاث موائد ؛ استدارة المائدة الكبرى منها خمسون شبراً ، فضاق الباب عن دخولها حتى قلع ووسع الموضع لإدخالها[١] .

وكان خشب الخلنج يستعمل أيضاً فى قصور الفاطميين لصنع الطيافير[٢] ؛ وكان هذا الخشب يُجهَّز بكثرة فى جرجان على بحر الخزر[٣] . وفى القرن الثالث الهجرى بالمشرق أعجب الجاحظ بآنية من الخلنج الكيمالى (التركى) إلى جانب آنية الصينى الملمّع ، وكانت هذه محبوبة فى جميع البلاد[٤] ، وكانت أدوات الطبيخ تسمى الصفر[٥] . ويحدثنا ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قدر ، وأنها كانت تؤجرها كل قدر بدرهم[٦] .

أما الحمامات الساخنة فنجد فى عناية المسلمين بها وتشييدهم الكثير منها ميراثاً من أحسن ما أخذ عن اليونان والرومان ، ولم يكن اتخاذ الحمامات العامة من مظاهر الحياة فى العصر القديم ، حتى إنه ليحكى عن بلاش ملك الفرس (من عام ٤٨٤ م — ٤٨٨ م) أنه لما أمر بإنشاء الحمامات للناس فى مدن مملكته جلب على نفسه سخط الكهنة[٧] ؛ لأنهم رأوا فى ذلك انتهاكا لحرمة الدين[٨] . ولما جاء قُباذ بعد ذلك واستولى على مدينة آمد ، ودخل أحد حماماتها العامة سُرَّ به كثيراً ،

---

(١) كتاب الوزراء ص ٦٥ .
(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٢٠ .
(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٢٧٧ .
(٤) كتاب البخلاء طبعة فان فلوتن ص ٥٧ ، وانظر شعراً فى العقد ج ٣ ص ٢٩٦ .
(٥) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣٩٢ .
(٦) رحلة ناصر خسرو ص ٧٥ من النص الفارسى .
(٧) Josua Stylites, ed. Wright § 19
(٨) جة الطبرى لنولدكه ص ١٣٤ هامش رقم ٥ .

وأمر أن يُبنى حمام مثله فى كل مدينة من مدن فارس[١] . ويذكر الطبرى وهو من مؤرخى العرب المتقدمين أن الفرس لم يكن لهم قبل عهد الإسلام حمامات[٢] .

على أن المتشدّدين من المسلمين كانوا دائماً ينظرون إلى اتخاذ الحمامات العامة نظرة الارتياب ، ويحكى عن أبى بكر السلّمى المتوفى عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م أنه قيل له : لو حلقت شعرك فى الحمام ، فقال : لم يثبت عندى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حماما قط[٣] . ويحكى عن الزمخشرى أنه قال : ويكره أن يعطىَ الرجل امرأته أجرة الحمام ، لأنه يكون معيناً لها على المكروه[٤] . وقد ذكر الخليفة القاهر عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م عن أحد سلفه أنه بنى « حمامات رومية » للحرَم ، وهذا الاسم الذى أطلقه عليها القاهر لايخلو من دلالة[٥] . أما زخرفة الحمامات فلم تكن إسلامية بالكلية ، ففى حمامات سامرّا كانت الدرجات تُزيَّن بالصور بدلا من البلاط المختلف الألوان ، وهذه عادة كانت بالشام ، وترجع إلى العصر الأخير من الحضارة اليونانية[٦] . وقد ذكر المسعودى أن الناس يصوّرون العنقاء فى الحمامات ، والعنقاء صورة لحيوان خيالى عند الشرقيين ، وهى تمثل بطائر وجهه وجه إنسان وله منقار نسر ، وأربعة أجنحة من كل جانب ويدان ذات مخالب[٧] ، ويؤثر عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : بئس البيت

---

(١) Josua Stglites, § 75 وانظر Land, Anecdota, III, 210.

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٩٩ . (٣) طبقات السبكى ج ٢ ص ١٣١ .

(٤) مطالع البدور للغزولى ج ٢ ص ١٧ .

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٩ وكان يسمى المكان الذى تخلع فيه الملابس باسم مأخوذ من السريانية وهو كلة مشلح (المغرب لابن سعيد ص ٤٣) ، وكان أهل الشام يسمون آجرّ الحمام بالقراميد وهو اسم مأخوذ من الرومية Keramidi . انظر المعرّب للجواليقى طبعة سخاو ص ١١٦ .

(٦) Sarre und Herzfeld, Erster vorlaufiger Bericht über die Ausgrabungen von Samarra, Berlin 1912, S. 24.

(٧) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٢٩ .

الحمّام ، تُكشف فيه العورات ، وترتفع فيه الأصوات ، ولا تُقرأ فيه آية من كتاب الله[١] .

وكان فى الجانب الشرقى من بغداد وحده فى القرن الثالث الهجرى خمسة آلاف حمام[٢] ، وكان فى جانبى بغداد فى النصف الأول من القرن الرابع عشرة آلاف[٣] ، وفى النصف الثانى كان بها خمسة آلاف فقط[٤] ؛ وهذا العدد لم يزل فى نقصان حتى ذكر فى القرن السادس أنه كان ببغداد ألفا حمام[٥] . وكانت الحامات تُطلى بالقار وتسطّح به حتى يُخَيّل للناظر أنها مبنية من رخام . وكان هذا القار يُجلب من عين بين البصرة والكوفة[٦] .

أما مصر فلم تكن العناية بإنشاء الحامات كبيرة مثل ما كانت بالشام ، فيذكر لنا المقريزى أنه كان بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماما ؛ وكانت حامات القاهرة فى عام ٦٨٥ هـ — ١٢٨٦ م ثمانين حماما فقط[٧] وكان يقوم بخدمة الحمام خمسة نفر على الأقل : حمّامىّ ، وقيّم ، وزبّال — لأن الوقود فى الحامات كان فى الغالب من الزبل اليابس — ووقّاد ، وسقّاء[٨] .

أمر أبو جعفر المنصور فى عام ١٥٣ هـ بلبس القلانس الطوال ، والدراريع مكتوب عليها بين كتفى الرجل فسيكفيكهم الله ، كما أمرهم بتعليق السيوف فى أوساطهم ، فدخل عليه أبو دُلامة ، وعليه قلنسوة طويلة وبقية الملابس التى أمر بها الخليفة ، فقال له : كيف أصبحت يا أبا دلامة ؟ قال : بشرّ ، قال المنصور :

---

(١) مطالع البدور ج ٢ ص ١٧ . (٢) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٤ .

(٣) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) نفس المصدر ص ٧٦ ، وجاء فى ص ٧٤ أنه كان ببغداد ستون ألف حمام ، وهنا فيه مبالغة وتخيل ، أما السبعة والعشرون ألفاً فيجب أن يؤخذ على أنها ... المساجد لا الحامات .

(٥) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٨٠ . ورحلة ابن جبير ص ٢٣٠ .

(٦) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠ . (٧) الخطط ج ٢ ص ٨٠ .

(٨) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٤ .

كيف ؟ ويلك ؟ قال : ما ظنك برجل وجهه فى نصفه ، وسيفه فى استه ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ! فأمر المنصور بتغيير الزى ، وقال أبو دلامة هذا لما أمر المنصور بما أمر به :

وكنا نرجى من إمام زيادةً   فزاد الإمام المصطفى فى القلانس
تراها على هام الرجال كأنها   دِنان بيهود جُلِّلت بالبرانس[1]

ولما اتصل أهل أوروبا بالشرقيين أيام الحروب الصليبية نقلوا إلى بلادهم هذه القلانس الطوال ومعها الخز وجعلوها لباس النساء فى الغرب[2] .

ولما جاء المستعين (٢٤٨ ﻫ — ٢٥٢ ﻫ = ٨٦٢—٨٦٦ م) صغّر القلانس ، بعد أن كانت طوالا كأقباع القضاة[3] ؛ وأحدث المستعين أيضاً لبس الأكمام الواسعة التى لم تكن تُعهد من قبل فجعل عرضها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك[4] . وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب يحفظ فيها الإنسان كل ما يحتاج إلى حفظه مثل

---

(١) لب اللباب فى رد جوابات ذوى الألباب ؛ مخطوط رقم ٨٣١٧ بمكتبة برلين ص ١٢٤ ا ، وكتاب أوليّات على دده مخطوط برلين رقم ٩٣٧٢ ص ٥٨ ا ، وكانت هذه القلانس تدعم بعيدان من داخلها (الأغانى ج ٩ ص ١٢١) ، ولما فتح عباد بن زياد الهند ووصل قندهار رأى قلانس أهلها طوالا فعمل عليها (الفتوح للبلاذرى ص ٤٣٤) . وكانت القلانس والمناطق فى نظر العرب الجاهليين من لباس الفرس Jacob' Oltarab. Beduinen-leben, S. 237 . وكان الرشيد لا يحب هذا التجديد الذى أحدثه المنصور ، فيحكى الجاحظ أن العمانى الراجز دخل على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج ، فقال له : إياك أن تنشدنى إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان ومالقان . (البيان والتبيين ج ١ ص ٢ ٤) . ويحكى المسعودى (المروج ، ج ٨ ص ٣٠٢) أن المعتصم أعاد لبس القلانس تشبهاً بملوك الأعاجم فلبسها الناس اقتداء بفعله وسميت المعتصميات . وكان زىّ أهل مصر حوالى عام ٢٣٠ وجالُ شيوخهم وأهل الفقه والعدالة منهم لبس القلانس الطوال ، وكانوا يبالغون فى ذلك ، فأمرهم محمد بن الليث القاضى بتركها لأنها من لباس القضاة وزيهم فلم ينتهوا حتى ضربهم (القضاة للكندى ص ٤٦٠) .

(٢) وكان من العادات النادرة بفرنسا فى القرن الثانى عشر الميلادى لبس ... وأصلها عادة شرقية انظر Jac. Falke, Gesch. des Geschmackes im mittel alter S. 66

(٣) مروج الذهب ج ٧ ص ٤٠٢ .   (٤) نفس المصدر .

الدنانير[١] والكتب ، وكان المهندس يضع فيها ميله[٢] ؛ والسيرفى يجعل فيها رقاعه[٣] ، والخياط يحمل فيها الجلم[٤] ، والقاضى يضع فيها الكراسة التى يقرأ فيها الخطبة يوم الجمعة[٥] ؛ والكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضها[٦] . وكان بعض العمال يحفظ المستندات فى خُفّه ، ويحكى عن الحسن بن مخلد وزير المعتمد أنه لما كان كاتباً بين يدى الموفق بن المتوكل سأله يوما كم عنده فى الخزائن من ثوب أعجبه ، فأخرج من خفه دستوراً فيه جُمَل ما فى الخزائن من الأمتعة والثياب ، وأجاب الخليفة بما أراد[٧] . وكان بعض الندماء يضعون مخازن مملوءة أدهانا فى خفاف غلمانهم أو اللفّات مدرجة فى المناديل ، فإذا أمضّهم الجوع وشحذهم الشراب تناولوا ما أعدوه من ذلك[٨] .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى وأواخره كان من عادة الظرفاء اجتناب لبس الثياب ذات الألوان ، لأنهم كانوا يعتبرون ذلك من شأن النساء والإماء ، وكان أقصى ما يجوز للإنسان أن يلبسه فى خاصة بيته وفى أيام الاحتجام وفى حلقات الشراب ، أما فى الشوارع فليس اتخاذها من شأن الظرفاء . وكان يحسن بسروات الناس لبس الثياب البيض ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : خلق الله الجنة بيضاء ، وخير ثيابكم البيض تلبسونها فى حياتكم

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٤ ، والمكتبة العربية الاسبانية ج ٣ ص ٤٩ . وحكى التوحيدى (رسالة فى الصداقة ص ١١) عن محمد بن على بن الحسين الباقر رضى الله عنه أنه قال لأصحابه : أيدخل أحدكم يده فى كم صاحبه فيأخذ حاجته من الدراهم والدنانير ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذن بإخوان .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٩ .
(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣٩٩ .
(٤) مروج الذهب ج ٦ ص ٣٤٥ .
(٥) الخطط ج ١ ص ٣٩٠ .
(٦) الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٦٩ ؛ وكانت الأكمام فى عصر الإسلام الأول طويلة حتى كان يُقص منها ما زاد على الأصابع (بستان العارفين ص ٩٠) .
(٧) التنوخى ص ٢٩٨ .
(٨) أدب النديم ص ١٥ أ .

وتكفنون بها موتاكم[١] ، ويحكى عن عطاء بن رباح فى العصر الأموى أنه لقى ابن سُرَيْج فى أحد شوارع المدينة ، وعليه ثياب مصبّغة ، وفى يده جرادة مشدودة رجلها بخيط يطيّرها ويجذبها كلما تحلّقت ، فقال له عطاء : يا فتّان ! ألا تكفّ عما أنت عليه ! كفى الله مؤونتك ، فقال ابن سريج . وما على الناس من تلوينى ثيابى ولعبى بجرادتى ! [٢] ؛ ولا يجيز أهل الظرف والأدب لبس شىء من الثياب الدنسة مع ثياب مغسولة ، ولا المغسول مع الجديد ، ولا الكتان مع المروى ، وهم يرون أن « أحسن الزى ما تشاكل وانطبق ، وتقارب واتفق »[٣] وكان البياض من لبس الرجال ، وكان أيضاً لباس النساء المهجورات ، أما غيرهن فيجتنبنه إلا أن يعملن منه سراويلات . ولا يلبس الملوّن إلا إذا كان لونه طبيعيا ، لأن الألوان غير الطبيعية من لبس النساء النبطيات والإماء والمتقيّنات . وكان الأزرق فى المشرق لبس الحداد[٤] ، أما فى الأندلس فكان البياض يُلبس لذلك[٥] . وكانت السراويلات مما يكمل به لباس الرجال ، وهى لباس غير عربى[٦] ، وكانت طوائف العيال الثلاثة الكبرى تتميّز بلباسها ، فكان الكتاب يلبسون الدراريع[٧] ، وهو ثياب مشقوقة من الصدر ، وكان العلماء يلبسون الطيلسان[٨] ، وكان القواد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة . وقد صار القباء لباساً رسميا لرجال الدولة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م حتى كان

(١) بستان العارفين ص ٩٠ . (٢) التذكرة الحمدونية ص ١٤٨ أ .
(٣) الموشى ص ١٢٤ ؛ والمروءة للثعالبى ص ١٢٩ ب .
(٤) الموشى ص ١٢٦ ؛ وديوان كشاجم ص ١٦٩ ؛ وكتاب العيون ص ١١٠ أ — ب .
(٥) الطراز للموشى ص ٢٠٢ .
(٦) مسكويه ج ٥ ص ٥٢٨ مثلا ، وكتاب الوزراء ص ١٧٦ ، وجمع السراويل سراويلات (للموشى ص ١٢٦) . (٧) مسكويه ج ٦ ص ٣٠٨ .
(٨) وكان اتخاذ الطيالس شائعاً بمدينة شيراز حتى يقول المقدسى (ص ٤٤٩) : ولا ترى بها لصاحب طيلسان مقداراً ؛ ولقد رأيت أهل الطيالس سكارى ؛ وهو لم يرض أن يقابل الوزير بطيلسان .

لا يدخل المقصورة فى يوم الجمعة إلا من كان من الخواص المتميزين بالأقبية السود ؛ وحضر بعضهم مرة بدرّاعة فرُدّ حتى مضى ولبس القباء ، وكان هذا الرسم جارياً مأخوذاً به فى سائر مقاصير الجوامع ثم بطل فيما بعد ؛ حتى يحدثنا الخطيب البغدادى، حوالى عام ٤٠٠ هـ أنه كان لا يلبس القباء والسواد سوى الخطيب والمؤذنين[١] . وكان التاجر الغنى أو الغنى من الناس يلبس قميصين ورداء فوق السراويلات ، وهذا كله لباس الخليفة القاهر يوم أُحضر للبيعة فى عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م[٢] . ويحكى عن أبى بكر الفرغانى الصوفى ، وكان من المجتهدين فى العبادة (توفى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٣ م) أنه لم يكن يُرى أحسن منه ممن يظهر الغنى فى الفقر ، كان يلبس قميصين ورداء وسراويل ونعلا نظيفاً وعمامة وفى يده مفتاح ، وليس له بيت ، ينطرح فى المساجد ويطوى الخمس والست[٣] . ثم حل الخفتان محل الملابس العربية ، فيحكى عن سعيد الشاعر المعروف بقاضى البقر أنه ركب إلى الأخشيد فى ليلة شتاء باردة وعليه ملابس منها الخفتان[٤] . وكان الخفتان أيضاً من جملة ملابس أدباء الشام[٥] . ولما ركب الخليفة المقتدر عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م لقتال مؤنس ، وهى ركبته التى قتل فيها ، كان عليه خفتان[٦] . أما المطر الذى يُعمل من القماش المشمع للوقاية من المطر بحيث لا يمكن أن ينفذ منه الوابل ، فقد جاء من الصين ؛ وقد سأل البحترى (المتوفى عام ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م) فى قصيدة من قصائده ممدوحه أن يهب له مِمطراً يقى به المطر[٧] . وقد وصف المقدسى قلة المطر فى اليمن بأن أهلها لا يرد ذكر المماطر فى كلامهم[٨] . أما الجوارب فكان يلبسها

(١) تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١٥ ا .
(٢) عريب ص ١٨٢ . (٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٠٣ طبعة ليدن .
(٤) المغرب لابن سعيد ص ٣٢ .
(٥) الصنوبرى فى جمهرة الإسلام للشيرازى مخطوط ليدن ص ١١٣ ب .
(٦) عريب ص ١٧٧ . (٧) ديوان البحترى ج ١ ص ١٨٥ .
(٨) المقدسى ص ٩٦ .

الرجال[١] والنساء على السواء[٢] . وكان لبس الخفاف الحمر معيباً ، وإن كان قد لبسها قيصر الروم وعامة المسلمين ، وكان ولىّ العهد عند الروم البوزنطيين يلبس خفا أحمر وخفا أسود[٣] ، كما كان يلبس ذلك الخيلاء من المتظرفين المتخنثين الجهال .

وقد جرت العادة دهراً طويلا بأن يلوى الغلمان والجوارى شعر أصداغهم على صورة حرف النون (ن) أو على صورة العقرب ، ويقول ابن المعتز :

لوى صدغه كالنون من تحت طُرّة ممسكة تُزهى بعـــاج جبين

ويقول :

ريم يتيه بحسن صورته عبث الفتور بلحظ مقلته
وكأن عقرب صدغه وقفت لمـا دنت من نار وجنته[٤]

وقد تغنى أبو نواس بذلك قبل ابن المعتز بمائة عام فقال :

أصداغهن معقربا ت والشوارب من عبير[٥] .

وكان القوط الشرقيون فى بعض العصور يخيفون أهل أوروبا الجنوبية بأن يصبغوا شعرهم باللون الأخضر ؛ وكان أهل تراقية يصبغون شعورهم الشقراء باللون الأزرق[٦] . وكانت عادة خضاب الشعر منتشرة فى بلاد الشرق سواء فى جزيرة العرب أو فى إيران ، حتى اختلف العلماء فى حكم الشرع فيها ، ونجد أبا نُعَيم صاحب تاريخ أصفهان المتوفى عام ٤٣٠ هـ — ١٠٣٩ م حريصاً على أن يذكر فى

(١) بتيمة الدهر ج ٣ ص ٤٣ ، وكانت من الإبريسم أو الخز .
(٢) الأغانى ج ٦ ص ٨٥ .
(٣) الموشى ص ١٢٥ ، وابن خرداذبة ص ١٠٩ .
(٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٦ ، ص ٧٠ .
(٥) ديوان أبى نواس ص ٨٢ — ٨٣ .
(٦) Thomaschek, Die Thraker وانظر Geblart, Italie Mystique

ترجمة رجاله إن كانوا يخضبون شعورهم أم لا ، بل هو يحكى عن أبى إسحاق إبراهيم بن أيوب المنبرى — وكان صاحب تهجد وعبادة ، لم يعرف له فراش أربعين سنة — أنه كان يخضب رأسه ولحيته[١] . على أنه يظهر أن عادة الخضاب هذه كانت نادرة بين سروات الناس ، ولذلك نجد صاحب الفهرست فى الترجمة القصيرة التى كتبها لأبى الحسن المنجم ، وكان أديباً وممن يجالس الخليفة ، يذكر فى شىء من التأكيد أنه كان يخضب إلى أن مات عام ٣٢٥ هـ ، وله من العمر ست وسبعون سنة[٢] . وقد كان من الذوق المتكلف فى العصر الأخير لمعاصرة الرومان أنهم كانوا يدخلون فى حلبات السباق غنما مصبوغة باللون الياقوتى ، وثيراناً مصبوغة باللون الأبيض ، وسباعاً مصبوغة لبدها باللون الذهبى ، ونعامات مصبغة باللون الأخضر القانى[٣] . ولم يحدثنا عن مثل هذا أحد من مؤلفى القرن الرابع الهجرى ؛ على أنى شاهدت فى بغداد فى أيامنا حميراً مصبوغاً نصفها باللون الأحمر ، وحمارا نظيفاً مصبوغاً باللون الوردى ؛ وربما يكون هذا من بقايا عادات قديمة .

وفى القرن الرابع الهجرى ظهرت من جديد فيما يتعلق بالمقابر عادة غير إسلامية بالكلية ، وهى بناء الكبراء لأنفسهم فى حياتهم تربا ليدفنوا بها ؛ وأول من فعل ذلك أم المقتدر ، وهى أم ولد رومية ، بنت لنفسها تربة بالرصافة[٤] وكذلك بنى الخليفة الراضى المتوفى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م تربة بالرصافة أيضاً[٥] ثم بنى معز الدولة المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٦ م تربة فى مقابر قريش[٦] . وعمر

---

(١) تاريخ أصفهان مخطوط ليدن ج ١ ص ٩٨ أ ، ١٠٨ أ ، ١٢٢ أ ؛ ج ٢ ص ٢٥ ب .
(٢) الفهرست ص ١٤٤ .
(٣) V. Gleichen-Russwurm, Elegentiae S. 461.
(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠٣ طبعة ليدن .
(٥) المنتظم لابن الجوزى ص ٦٩ أ .
(٦) نفس المصدر ص ١٠٢ أ .

الطائع بعد ذلك تربة لنفسه بالرصافة [١] . وفى هذه الناحية ظهرت عدا ذلك مجموعة عادات أخرى بعيدة كل البعد عن روح الإسلام ، ثم رسخت أصولها ، فقد نهى كثيراً عن الصياح على الجنائز ؛ ولكن النهى لم يثمر ، ففى سنة ٢٥٠ هـ — ٨٦٤ م كانت تشق الجيوب وتصبغ الوجوه بالسواد ، وتقص الشعور بمصر [٢] . وقد منع العامل من ذلك وسجن النائحات ، وكذلك فى عام ٢٩٤ هـ — ٩٠٧ م [٣] . ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله فحظر عام ٣٩٤ هـ على النساء كشف وجوههن وراء الجنائز والبكاء والعويل وخروج النائحات بالطبل والزمر على الميت [٤] ؛ ولما قُتل الحجاج ونكبوا على يد الجنابى خرج نساء بغداد إلى الطرقات مسودات الوجوه ، منشرات الشعور ، يصرخن ويلطمن [٥] . وفى عام ٣٠٥ هـ — ٩١٧ م مات غريب خال المقتدر ، فأمرت أم المقتدر بهدم القبة الخضراء التى كان قد بناها لنفسه ببغداد ، وبتحطيم طياره ومركبه على نهر دجلة [٦] . ولما مات زيرك الخادم القاهرى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م اشتد عليه حزن الرامى ، وخرج من داره مستوحشاً وانتقل إلى الشماسية — وهذه عادة معروفة عند شعوب كثيرة — وصنب من دنان المطبوخ أر بمائة دنّ فى دجلة حزناً على زيرك [٧] . وقد أوصى أبو الفضل الهمذانى إذا جاءه الحق وتوفاه الموت ، ألا تعقد عليه مناحة ولا يلطم خد ، ولا يخمش وجه ، ولا ينشر شعر ، ولا يمزق ثوب ، ولا يشق جيب ، ولا يهال نقع ، ولا يرفع صوت ، ولا يدعى ويل ، ولا يسود باب ، ولا يحرق متاع ، ولا يقلع غرس ، ولا يهدم بناء ، وأن يكفن فى ثلاثة أثواب بيض لا سرف فيها ، وحرج على من يتولى أمره أن يقرنه ثوب خيلاء من مطرز

(١) ديوان الشريف الرضى ص ٦٦٦ .
(٢) الولاة للكندى ص ٢٠٣ وما بعدها .
(٣) نفس المصدر ص ٢٦٦ .
(٤) يحيى بن سعيد ص ١٢٥ ب .
(٥) كتاب الوزراء ص ٤٩ .
(٦) كتاب العيون والحدائق ص ٩٦ ب .
(٧) نفس المصدر ص ١٨١ أ — ب .

أو معلم أو إبريسم أو منسوج بذهب[١] . وكان يعمل فى تغسيل الكبراء وتكفينهم من الترف والسرف ما هو غريب عن الإسلام ، فيحكى أنه لما مات الأمير سيف الدولة بن حمدان عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م غسل تسع مرات أولاها بالماء ثم بزيت النيلوفر ثم بالصندل ، وبعد ذلك بالضريرة ثم بالعنبر ثم بالكافور ثم بماء الورد ، وغسل بعد ذلك ثلاث مرات بالماء المقطر ، ونشف بعد غسله بدبيقى ثمنه خمسون ديناراً أخذه الغاسل وهو قاضى الكوفة إلى جانب أجرته ؛ ثم دهن بالزعفران والكافور ووضع على خديه ورقبته مائة مثقال من الغالية ، وفى عينيه وأذنيه ثلاثون مثقالا من الكافور . وبلغ ثمن كفنه ألف دينار ، ثم وضع فى تابوته ورش عليه الكافور[٢] ، وفى عام ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م مات تميم بن المعز فكفن فى ستين ثوبا[٣] . وقيل إن ابن كلس لما توفى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م كفن وحفظ بما قيمته عشرة آلاف دينار[٤] . وكان للنداء على الموتى صورة لم ينكرها رجال الشريعة ، إذ نادى الناس فى جنائز العلماء بمثل ما كان جماعة ينادون بين يدى الخطيب البغدادى قائلين : هذا الذى كان يذبّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الذى كان ينفى الكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الذى كان يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] ؛ وبمثل ماقاله جماعة بين يدى نعش أحد العلماء : لاينال الشفاعة إلا من أحب السنة والجماعة[٦] . وكثيراً ما كان العلماء يُدفنون فى دورهم ، ثم ينقلون بعد عدة سنين

---

(١) رسائل الهمذانى ص ٥٣٦ وما بعدها .

(٢) ابن شداد مخطوط بيروت ص ٥١ أ ؛ وقد تفضل الدكتور سراسين (W: Sarasin) باطلاعى على هذ النص .

(٣) الوفيات لابن خلكان (طبعة فستنفلد) ج ٢ ص ٢٣ .

(٤) النجوم الزاهرة طبعة كلفورنية ص ٤٦ نقلا عن الذهبى .

(٥) طبقات السبكى ج ٣ ص ١٥ .

(٦) ابن بشكوال ص ١٣٤ ، ويظهر أن هذه العادة كانت منتشرة فى الأندلس .

إلى المقبرة[١] . وفى النصف الثانى ظهرت بين الشيعة عادة لا تزال باقية إلى اليوم وهى حمل موتاهم إلى النجف وكربلاء[٢] ، وهذه أيضاً إنما كانت جريا على عادة قديمة ، فيحكى لنا القمى العالم الشيعى المتوفى عام ٣٨١ هـ ٩٩١ م أن اليهود والنصارى فى عصره كانوا لا يزالون يدفنون موتاهم فى فلسطين[٣] .

* * *

وكانت صور الدعوات إلى المجالس تتناسب بالضرورة مع الذوق البلاغى فى ذلك العصر ، وفى هذا الباب نجد كثيراً من القطع الأدبية المدهشة التى تتجلى فيها اللباقة الأدبية[٤] ، فمن ذلك أن الصاحب بن عباد كتب لأحد أصحابه : « نحن ياسيدى فى مجلس غنى إلا عنك ، شاكر إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفتقت فارات النارنج ، ونطقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، واهتزت رياح الأقداح ، ونفقت سوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الندّ ؛ فبحياتى لما حضرت لنحصل بك فى جنة الخلد ، وتتصل الواسطة بالعقد »[٥] وفى أوائل القرن الرابع الهجرى كان الوزير أبو الحسن على بن الفرات يدعو إلى طعامه فى كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختص بهم ، وكان منهم أربعة

(١) طبقات السبكى ج ٢ ص ٢٥٧ (ترجمة إمام الحرمين) ، وكذلك قاضى القضاة عبد الله بن معروف المتوفى عام ٣٨١ هـ (المنتظم لابن الجوزى ص ١٣٣ ب) ، والاسفرايينى المتوفى عام ٤٠٦ هـ ببغداد ، ولم ينقل إلى المقبرة إلا سنة ٤١٠ هـ (الوفيات طبعة فستنفلد ج ١ ص ٣٥) ؛ والقاضى عبد الجبار المعتزلى قاضى قضاة الرى (توفى عام ٤١٠ هـ — طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٢٠) ؛ والقدورى المتوفى عام ٤٢٠ هـ (الوفيات ج ١ ص ٣٨) .

(٢) انظر الفصل الخاص بالشيعة .

(٣) كتاب العلل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٧ ص ١١٥ ب ؛ ولما مات على بن الأخشيد عام ٣٥٥ هـ حمل فى تابوت إلى البيت المقدس ودفن مع أخيه ووالده بباب الأسباط (الكندى ص ٢٩٦) .

(٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٨٠ وما بعدها .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٨١ .

نصارى ، « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويقدَّم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة فى الوقت من خير شيء ، ثم يُجعل فى الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها مايحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ؛ ومعه طست زجاج يرمى فيه الثفل ، فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقدمت الطسوت والأباريق فغسلوا أيديهم وأُحضرت المائدة مغشاة بديباج فوق مكبّة خيازر ، ومن تحتها سفرة أدم فاضلة عليها ، وحواليها مناديل القمر . . . . . فإذا وُضعت رُفعت المكبّة والأغشية ، وأخذ القوم فى الأكل ، وأبو الحسن بن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم ، فلا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين ، ثم ينهضون إلى مجلس فى جانب المجلس الذى كانوا فيه ، ويغسلون أيديهم ، والفراشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الديبقية ورطليات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم[1] » .

وإنما ذكر وضع ألوان الطعام بعضها بعد بعض لأنه كان عادة مستحدثة ؛ أما العادة الإسلامية القديمة فكانت تقضى بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة يأخذ كل واحد منه ما يشتهى[2] . وكانت هذه الطريقة أعنى وضع الطعام كله مرة واحدة هى الطريقة الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، ثم حلت محلها الطريقة الروسية وانتشرت فى أوروبا كلها . وكان غسل المدعوين أيديهم معاً على المائدة قبل الطعام عادة شائعة ، ويكون غسل الأيدى من وعاء واحد ، ويبدأ رب البيت لئلا يحتشم أحد[3] . أما الغسل بعد الطعام فكان أشبه بتنظيف حقيقى ،

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

(٢) المستطرف ج ١ ص ١٤٦ ، وغير ذلك من الحكايات القديمة .

(٣) كتاب العلل للقمى المتوفى عام ٣٨١ هـ مخطوط برلين ص ١١٢ ب ، وأدب النديم لكشاجم مخطوط باريس ص ٤٨ ب .

ورب البيت يغسل بعد جميع ضيوفه ، وذلك بأن يبتدى الدور عن يساره ثم يسير حتى ينتهى إليه فيكون آخر من يغسل [١] . أما إذا كان الغسل مع الرؤساء لامع النظراء كأن يكون الإنسان مع الوزير مثلا فكان الأليق أن يغسل الضيوف أيديهم فى ناحية خاصة ، ويقول كشاجم فى أمر غسل اليد : « قد اصطلح الناس على إجلال رؤسائهم وملوكهم عن غسل أيديهم بحضرتهم ، واستجازوا ذلك مع نظرائهم ومن يسقط التحفظ بينه وبينهم ، ولو آثر الناس الاعتزال لغسل الأيدى مع كل طبقة حتى لا يرى بعضهم بعضاً لكان ذلك عندى أليق بالظريف ، لما يحتاج إليه من استقصاء الغسل والمبالغة فى التنظيف وإجالة الأنامل فى اللهوات والخلال فى الأسنان » مما لا يشك أحد أن ستره عن عين المحب والمبغض والرفيع والمتواضع أحمد من اطلاعه عليها ، وإن المرء ليتأذى أن يرى ذلك من نفسه فكيف من غيره ، وربما يحسن الرئيس ويجمل فيقول لنديمه : اغسل يدك مكانك ولا تتزعزع فالثقيل يغتنم ذلك والفطن يأباه ويغلب الأدب ويستفيد الحظوة » [٢] . وكانت هذه العادة شائعة ، ففى العراق مثلاً كان الخاصة ينتظرون من العامة أن يقوموا عن مجلسهم ليغسلوا أيديهم جانباً [٣] . ويحكى أن الأفشين كان حظيّا عند المعتصم ، فكان أول غضبه عليه أنه أكل عنده يوماً ، ثم دعا بالطست فغسل يديه بحيث يراه المعتصم ، فقال المعتصم : هذا التيس الطويل اللحية يدعو بالطست حيث أراه ؟ [٤] وكان أحد كبراء البربر الأكراد بمصر أيضاً يقدم الطعام إلى ضيوفه حتى إذا فرغوا منه دعاهم إلى غرفة أخرى

---

(١) كتاب الطل ص ١١٢ ب ؛ وأدب النديم ص ٤٨ ب ؛ وقد ذكر القمى ، وهو من أهل خراسان ، عادة أخرى ، وهى أنه إذا فرغ من الطعام يبدأ الغسل من يمين الجالس أو عبداً . (٢) أدب النديم ص ٤٨ ا — ب ، ٤٩ ا .

المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٤٤٧ ؛ ومروج الذهب للمسعودى

مطالع البدور للغزولى ج ٢ ص

ليغسلوا أيديهم [١] . ويظهر أن عادة الاعتزال لغسل الأيدى ظهرت فى القرن الثانى الهجرى كما تدل عليه الحكاية التالية : كان عيسى بن يزيد بن دأب الليثى المتوفى عام ١٧١ هـ من رواة الأخبار والأشعار ومن حفاظها ، وكان تيّاها ينادم الهادى ولا يتغدّى معه ولا بين يديه فقيل له فى ذلك ، فقال : أنا لا أتغدى فى مكان لا أغسل فيه يدىّ ، فقال له الهادى فتغدّ ، فكان الناس إذا تغدوا تنحوا لغسل أيديهم وابن دأب يغسل يديه بحضرة الهادى [٢] . وتخليل الأسنان كان لا بد أن يُعمل جانباً كما تقدم القول [٣] .

يقول ابن المعتز فى خليل لاتُحمد صحبته :

مَنْ عذيرى من صاحب خادع الوعـــد وهـذا من الأخلاء بختى
أبداً ما شـــياً ويمسح ناباً بسواك كمضرب البردست [٤]

وهو حين يذكر أن الوزير يحادث ضيوفه على الطعام يصف أيضاً عادة زمانه ، على أن الناس قد اختلفوا فى موقع الحديث على الطعام فاستحسنه قوم وكرهه آخرون ، وهو من صاحب المنزل والمائدة أحسن منه من الآكل والزائر ، كما قال بعضهم :

صادف زاداً وحديثاً ما اشتهى إن الحديث طرف من القرى

واستجيد قولُ بعض المحدثين :

كيف احتيالى لبسط الضيف من خجل عند الطعام فقد ضاقت به حِيَلى
أخاف ترداد قول لى فأحشمه والصمت ينزله منى على البخل [٥]

وكان قول الإنسان : الحمد لله فى وسط الطعام غير مستحسن ؛ لأنه قد يدفع

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٥ (ف) .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ١٠٥ .
(٣) أدب النديم ص ٤٨ ب . (٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦ .
(٥) أدب النديم ص ٤٤ ب — ٤٥ ب .

الأضياف إلى النهوض قبل أن يشبعوا ، ومن المأثور قول بعضهم :

وحمد الله يحسن كل وقت ولكن ليس فى وقت الطعام
لأنك تحشم الأضياف عنه وتأمرهم بإسراع القيام
وتؤذنهم ، وما شبعوا ، بشبع وذلك ليس من خلق الكرام[1]

ويستحسن الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ ٨٩٦ م) من النديم ألا يمشش الطعام ، ولا يبادر إلى البيض الموضوع على البقل ، ولا يأخذ لنفسه أكباد الدجاج وصدورها أو المخ أو الكلى أو العيون — وهى لا تزال حتى اليوم أحب ما فى الشاة إلى أهل البلقان — أو صغار الفراريج[2] . ولكن بعد الجاحظ بقرن يذكر صاحب كتاب الموشى فى باب زى ذكر الظرفاء فى الطعام : اعلم أن أول ما استعملوه تصغير اللقم ، والتجالل عن الشره والنهم ، وأكل الأوساط الرقاق ، والبزماورد الدقاق ؛ وليس يأكلون العصبة والعضلة ، ولا العرق والكلوة ، ولا الكرش والقبة ، ولا الطحال والرئة ، ولا يأكلون القديد ، ولا الثريد ، ولا ماق القدر من الورق ، ولا يتحسون المرق ، ولا يتبعون مواضع الدسم ، ولا يملؤون أيديهم بالزهم ، ولا يحلون الملح ، وهو عندهم من أكبر القبح ، ولا يكوكبون فى الخل ، ولا يمعنون فى أكل البقل ، ولا يأكلون الطلع الشبيهة رائحته برائحة الماء الدافق ، ولا يمششون من العظام كراديس قصب الساق الغليظ ، وإنما مشاشهم ما لان وصفه لا ما غلظ وكبر ، ويأخذون ما ثقل من المشاش على ظهور الأصابع ويطرحونه ناحية من الخوان ، ولا يزهمون ما بين أيديهم من الرغفان ، ولا

(١) أدب النديم ص ٤٥ ب ، وأحسن ما سمعت الثعالبى طبعة مصر ١٣٢٤ هـ ص ١٠٣ .

(٢) عمد المنسوب الثعالبى فى مجلة جمعية المستشرقين الألمان ZDMG, VIII, S. 518. وهو كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب . وكان القصابون يذبحون كثيرا يوم الجمعة فيأكل كل الناس اللحم يوم الجمعة ، ثم تؤكل الرءوس يوم السبت (كتاب البخلاء للجاحظ طبعة فان فلوتن ص ١٢١) . ولذلك كان الناس بالأندلس حتى بعد العصر الإسلامى بزمان طويل يأكلون رءوس الغنم يوم السبت انظر Mendoza, Lazarillo de Tormes, Reclam, S. 31.

يتعدون مواضعهم ، ولا يلطمون أصابعهم ، ولا يملؤون باللقم أفواههم ، ولا يدسمون بكبرها شفاههم ، ولا يقطرون على أكفهم ، ولا يعجلون في مضغهم ، ولا يأكلون بجانبي الشدقين ، ولا يزاوجون بين الاثنين ، ولا يأكلون قدراً بائتة ولا قدراً مسخنة ، ولا يأكلون شيئاً من الكوريج والصحناه ، ولا الربيثاء والسميكات ، ولا شيئاً من الكواميخ والمالح ، وأكل ذلك عندهم من الفضائح[1].

ولم يكن يفرد لأحد من الضيوف طبق على حدة ؛ ويحكى عن أبي رياس (عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) أنه كان آية في حفظ أيام العرب وأنسابها وأشعارها ؛ ولكنه كان وسخ اللبسة قليل التنظيف شرهاً على الطعام سيء الأدب في المؤاكلة ، دعاه والي البصرة أبو يوسف اليزيدي إلى مائدته يوماً فلما أخذ في الأكل مدّ يده إلى بضعة لحم فانتهشها ثم ردّها إلى القصعة ، فكان بعد ذلك إذا حضر مائدته أمر بأن يهيّأ له طبق ليأكل عليه على حدة ، ودعاه الوزير المهلبي يوماً إلى طعامه فامتخط في منديل الغمر وبزق فيه ، ثم أخذ زيتونة من قصعة فغمزها بعنف حتى طفرت نواتها فأصابت وجه الوزير[2].

وقد نال فن الطبيخ عناية كبيرة من جانب المؤلفين ، حتى لنجد أبا الحسن علي بن هارون المعروف بالمنجّم وكان ممن يجالس الخلفاء ، وإبراهيم بن المهدي وكان أميراً يحسن الغناء ، وجحظة وكان شاعراً مجيداً ؛ نجدهم جميعاً يؤلفون كتبا في الطبيخ في القرن الثالث الهجري[3] ؛ بل يذكر المؤرخ الشهير ابن مسكويه (عاش حتى عام ٤٢٠ هـ) — وكان خازن كتب عضد الدولة — كتاب « في تركيب الباجات من الأطعمة » « أحكمه غاية الإحكام وأتى فيه من أصول علم الطبيخ بكل غريب حسن[4] » . ويقول الهمداني في أهل اليمن : « ولهم مع ذلك ألوان الطعام

---

(١) كتاب الموشى ص ١٢٩ — ١٣٠ . (٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٢٠ .
(٣) الفهرست ص ١٤٥ . (٤) أخبار الحكماء للقفطي ص ٣٣١ وما بعدها .

والحلاوى والشربة التى تؤثر على غايات ألوان كتب المطابخ[١] » . ولكن يظهر أن جميع هذه الكتب قد ضاعت مع الأسف ، وكتب الطبيخ التى وصلت إلينا كلها حديثة العهد ، وهى تشتمل على ضروب من الطبيخ هى مزيج غريب قوامه اللحم والمسك والكافور وماء الورد[٢] كما كان إلى ذلك يميل الإيطاليون فى عصر النهضة . أما الكتب التى بقيت من العصر الأول[٣] فتدل على ذوق خير من ذلك ، وهى تجعل ماء الورد والعنبر والكافور لصنع الحلوى . وكانت الحلوى أحسن ما يصنع فى طعام الأعياد ، ويظهر أنها كانت تصنع بأكبر مهارة بلغها فن الطبيخ ، فكانت تصنع أبراج من السكر وتوضع فى وسط المائدة ؛ ويحكى عن المتنبى مثلا أنه قال شعراً يشكر فيه رجلا أهدى إليه هدية فيها سمك مصنوع من سكر ولوز فى عسل[٤] .

وكان وقت المسامرة بمعناها الصحيح يفصل عن وقت الطعام فصلا تاما ، وكان لا يبتدئ إلا مع أقداح الشراب ، ولم يكن النبيذ يشرب على الطعام حتى فى أشد العصور فساداً ، وكانت المشهيات تتألف من أشياء خريفة وكانت تسمى النُّقل وربما كان ذلك أخذاً عن الكلمة اليونانية Nogalmata أو الكلمة اللاتينية Nuclei ، وهما على ما تدل عليه كلمة نقل العربية . وكان أهل التظرف لا يكثرون من أكل النقل ، وإنما يعبثون منه بالشىء اليسير ، ويجتنبون الهندبا والأكشوث لبردهما ، والفجل والحُرْف لنتنهما ، والكراث والبصل لرائحتهما ، ولا يقع الثوم أو البصل فى قدر فيأكلونه ، ولا يقربون الخيار والقثاء والهليون ، ويرغبون عن أكل الزيتون لنواه ، وكذلك عما خالطه النوى من فاكهة الصيف

---

(١) وصف جزيرة العرب للهمدانى ص ١٩٨ .

(٢) حكاية أبى القاسم ص ٣٩ — ٤٠ من مقدمة متز .

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٩٢ وما بعدها . (٤) ديوان المتنبى ص ١٨ .

كالقَسْب والتمر والمشمش والنبق والعناب والخوخ والشاهلوج والأنجاص وهو عندهم من أكل العوامّ لا من أكل الخواصّ ، ولا ينفق عندهم الرمان والتين والبطيخ لصوته إذا انكسر ، ولا يأكلون الحنطة المحتصة ولا السمسم المقلوّ ولا الزبيب الأسود وهم يشبهونه بالبعر ، ولا يأكلون الباقلّى والبسر المقلو والبلوط والقريثاء والغبيراء والشاهبلوط والخرنوب الشامى ونحو ذلك ، وأكثر ما يتنقلون به مملوح البندق ومقشر القستق والملح النفطى والعود الهندى والطين الخراسانى والملح الصنعانى وسفرجل بلخ وتفاح الشام وقصب السكر المغسول بماء الورد[1] .

وكان الشراب منتشراً رغم نهى القرآن عنه ، ولكن مسألة الشراب كانت تختلف باختلاف البلاد ، فبينما كان يعاقب عليه فى الحجاز حتى يحكى أنه فى عام ١٦٩ هـ — ٧٨٥ م قبض عمر بن عبد العزيز على أحد العلويين مع آخرين على شراب فأمر بضربهم جميعاً وبأن تجعل فى أعناقهم الحبال ويطاف بهم فى المدينة ، كان أهل العراق لايرون بالشراب بأساً[2] ، وانتشرت دور الخمر كما كان عليه الحال قبل الإسلام ، وكان الخمّار والساقون والساقيات فى الغالب نصارى ، ويقول ابن المعتز :

من كفّ ظبى مُقَرْطق غنج يعشقه من عليه يعذلنى
تلوح صلبانه بلبّته كنور خيرية بلا غصن
ياليت من جاءه يقرّبه من فضل قربانه يقرّبنى[3]

وكذلك كان حال الشراب فى مصر ، فيحكى المقدسى أن المشايخ فيها لايتورعون عن شرب الخمور حتى ترى الشيخ منهم سكران[4] ، وذهبت كل أوامر رجال الشرطة سدى ، وفى آخر عهد الفاطميين كان يكتفى بإغلاق قاعات

(١) الموشى ص ١٣٠ — ١٣٢ ؛ وحكاية أبى القاسم ص ٤٨ .
(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٥٢ . (٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٤ .
(٤) المقدسى ص ٢٠٠ .

الخمارين بالقاهرة ومصر ومنع بيع الخمر فى آخر جمادى من كل سنة[١] . ويحكى عن نساء مراكش وهى بلاد كثيرة الأعناب أنهن كنّ مولعات بالشراب[٢] . ويحدثنا أحد الرحالين المحدثين أنه فى أول جنى العنب يكون الكثير من أهل مراكش سكارى[٣] . ويحكى عن الأزهرى اللغوى المشهور أنه ذهب إلى ابن دريد العلامة البصرى (المتوفى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م وقد جاوز التسعين) فوجده سكران فلم يعد إليه بعدها أبداً ، وكان زوّاره يدخلون عليه فيستحيون مما يرونه من العيدان المعلقة والشراب وهو فى تلك السنّ العالية[٤] . وفى عام ٣٢١ هـ أيضاً أمر الخليفة القاهر بتحريم الغناء والخمر ، « وكان هو مع ذلك يشرب المطبوخ ، ولا يكاد يصحو من السكر »[٥] ، ويذكر عن الخليفة الراضى الذى جاء بعد القاهر أنه كان أعطى الله عهداً ألا يشرب ، ولم يزل من خلافته نحو سنتين محافظا على عهده لا يشرب ، وكان جلساؤه يشربون بين يديه فلا يشرب معهم إلا الجلاّب ، ولكن أصحابه لم يزالوا به ليشرب ، فكتب رقعة بلفظ يمينه وعرضها على الفقهاء فوجدوا له رخصة ، فأعطى أستاذه ونديمه الصولى ألف دينار ليتصدق بها عنه وشرب[٦] ، وكان الخليفة المستكفى قد ترك النبيذ فلما أفضت إليه الخلافة عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م دعا به من وقته وعاد إلى شربه[٧] ، وكان فى بيوت الكبراء إلى جانب صاحب المطبخ رجل يسمى الشرابى شأنه العناية بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح[٨] . وكان الشراب عادة للكثيرين حتى كبار ذوى

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٩١ .
(٢) زناد الوادى مخطوط ليدن رقم ١٠٥٣ ص ٦٣ / .
(٣) Rohlfs, mein erster Aufenthalt in Marokko, S. 75
(٤) المنتظم لابن الجوزى ص ٤٩ ب ، والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٥٦ طبعة ليدن .
(٥) مسكويه ج ٥ ص ٤٢٤ ، والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٥٤ .
(٦) الأوراق للصولى مخطوط باريس ص ٦١ — ٦٢ .
(٧) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٩٠ .
(٨) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١١ .

المناصب الشرعية ، فيحكى أنه كان جماعة من الكبراء ينادمون الوزير المهلبي ، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطّراح الحشمة والتبسّط في القصف والخلاعة ، منهم ثلاثة قضاة هم ابن قريعة ، وابن معروف ، والتنوخي ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذّ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه وضع في يد كل منهم كأسُ ذهب وزنه ألف مثقال مملوء شرابا قطّربليا أو عكبريا ، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها فيه حتى تتشرّب أكثره ، ويرش منه بعضهم على بعض ، ويرقصون أجمعهم وعليهم المصبّغات ومخانق البرم ، فإذا أصبحوا عادوا إلى عادتهم من التزمّت والتوقّر والتحفظ بأبهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء[1] . وكان يحضر إلى مجلس الشراب في منزل كاتب للخليفة قاضٍ من قضاة بغداد توفى عام ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م ، وكان لا يشرب إلا قارصاً ، فأرسل صاحب المنزل غلاما وأحضر خماسية من دكان إسحاق الواسطي فيها من الشراب الذي كان بأيديهم إلا أن على رأسها كاغداً وختما مكتوب عليه « قارص من دكان إسحاق الواسطي » ، فشرب القاضي منه ثم سأل عن الشراب فقيل له : قارص ، فقال : لا بل والله الخالص ، ثم ثنى وثلّث ، فكان الغلام كلما أتاه القدح سأله عنه ، فيقول تارة : مدام وتارة خندريس ، فإذا قال له خمر حَرد واستخف به ، فلم يشرب القاضي إلا بمقدار ستة أسماء أو سبعة من أسماء الخمر حتى تبطّح في المجلس ولُفّ في طيلسانه وحمل إلى داره[2] . ويحكى عن ابن طباطبا نقيب الطالبيين بمصر المتوفى عام ٣٥٢ هـ — ٩٦٣ م ، وهو يشغل منصباً دينيا من الطبقة الأولى أنه كان له شعر في الخمر فمن ذلك قوله[3] :

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ١٠٦ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ٤٩ .

أأترك الشُّرْب والأنوار دائمة   والطلّ منها على الأشجار منثور
والغصن يهتز كالنسوان من طرب   والورد فى العود مطوىّ ومنثور
لا والتى تركتنى يوم فرقتها   كأنما الرمل فى عينى منثور

على أنه يحكى عن المتنبى الشاعر الكبير المتوفى عام ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م أنه هجر الخمر ، وعزم على ألا يشرب إلا ما يشرب به الكرم يعنى الماء ، من قوله :

هجرت الخمر كالذهب المصفّى   فخمرى ماء مُزْنٍ كاللجين[١]

ولكن هذا لم يكن من المتنبى تورعا ، فهو لم يكن له بالدين اكتراث .

ويُذكر عن الحاكم بأمر الله أنه لما عنّ له أن يعيد العمل بأحكام الإسلام الأولى نهى الناس عن شرب النبيذ وتشدّد فى ذلك ، حتى استطبّ أبا يعقوب إسحاق ابن إبراهيم بن أنسطاس ، فأشار عليه بشرب النبيذ وذكر له ما فيه من المنافع فجنح إلى مشورته ليتداوى بشربه ، وأغضى عما كان قد أمر به من منع الخمر ، بل استدعى المغنين وأصحاب الملاهى إلى مجلسه وشرب على غنائهم وخلع الخلع عليهم ، وأحسن إليهم ، ورجع الناس فى أمر النبيذ إلى ما كانوا عليه من قبل ؛ ولكن لما مات ابن أنسطاس عاد الحاكم إلى النهى عن الخمر ، ومنع منه أشد منع حتى منع من بيع الزبيب والعسل ، وأحرق منهما وألقى فى النيل شيئاً كثيراً للتجار يُقدّر بمال عظيم ، وكسر الظروف التى يوضع فيها النبيذ ومنع من عملها[٢] .

أما كثرة الشاربين وقلتهم فكان يُكره جلوس الاثنين للشراب ، وهو يسمى المنشار ؛ لأن المنشار يجلس عليه رجلان ؛ وكان الثلاثة يعتبرون أتم مجلساً ، لأن الاثنين ينهض أحدهما لبعض حاجته فيبقى الآخر وحده واجماً[٣] .

---

(١) ديوان المتنبى طبعة بيروت ١٢٧٦ هـ ص ٥١ ، وكان يخشى أن تضر الخمر بصحته ؛ انظر الديوان ص ٢٤٢ . (٢) يحيى بن سعيد ص ١١٨ ا .
(٣) أدب النديم لكشاجم ص ٣٢ ا .

وإذا كان القدماء قد استحسنوا الشراب مع نساء ذوات أدب ولباقة يتراوح عددهن بين ثلاثة وتسعة فإننا نجد أبا نواس يقول :

ثلاثة في مجلس طيب   وصاحب الدعوة والضارب
فإن تجاوزت إلى سادس   أتاك منهم شغب شاغب[١]

وقدا رتضى المتأخرون بعد أبي نواس هذا العدد ، قال الشاعر :

فليدْعُ منا خمسة   متخيِّرين ولا يزد
فدُوَيْنَ هذا وحشة   وفويقه سوق الأحد

وقال الشاعر فيمن لا يعتد بمجالسته :

خرجنا جميعاً إلى نزهة   وفينا زياد أبو صعصعه
فستة رهط به خمسة   وخمسة رهط به أربعه[٢]

وكانت أرض قاعة الشراب يُنثر عليها الزهر ، كما كان الحال عند القدماء وعند الروم البوزنطيين ، وكانت أكاليل الزهر تزيّن رءوس الشاربين . قال السلامي الشاعر في الدير الذي بقنطرة النوبندجان وقد شربوا هنالك ، ولبسوا أكاليل الزهر :

أقنطرة النوبندجان وديرها   وحور مهى لا تألف الحور غيرها
شربنا بها والروض يخلع زهره   على الشرب والأشجار تنثر طيرها[٣]

وقال الصنوبري في رفاقه على الشراب :

على ذا تاج ورد   وعلى ذا تاج نسرين[٤]

وكان المتظرفون يحيي بعضهم بعضاً بالورد ، وكان لا يستحسن أن يدفع

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٠٦ ، ٣٥٨ .
(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٢٨ ، ٢٤٩ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٧٠ .
(٤) جمهرة الإسلام مخطوط ليدن رقم ٢٨٧ ص ١١٣ أ .

بعضهم إلى بعض وردة واحدة ، « ولا تقول متظرّفة لأخرى : هذه وردتك » فهذا عندهن من أكبر العيوب ويعتبرونه من كلام العوام[١] . وكان الأدباء يحيي بعضهم بعضاً بالفاكهة على الشراب ، ويقول عبدان الأصبهانى :

سقيت وفى كف الحبيبة وردة وأترجة تغرى النفوس بصوتها

مداماً فلما قابلتنى بوجهها شربت فحيّتنى بلونى ولونها[٢]

وكان من مستلزمات الشراب الغناء والرقص ، وكانت آلات الموسيقى فى أغلب الأحيان أربعاً[٣] كما هو الحال اليوم ، وكان الجوارى يغنين من وراء ستارة ، ولكن كان من المبالغة فى إكرام الضيف أن تغنى المغنيات بين يدى الستار ، ويحكى أن أبا الحسن على بن القرات خلا للشراب فى وزارته الأولى ، وحضر جماعة من كتابه وأصحابه ، وحضر من المغنيات بين يدى الستائر ومن ورائها ما لا يحصى كثرة[٤] . وكان التأثر بالغناء قويا ، فكان منه ما يسر وما يبكى ، وما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه ، ويُذكر أنه لم يكن فى الإسلام أحسن صوتاً من مخارق ، غنى يوماً فى متنزّه ، وقد سنحت ظباء فجاءت إعجاباً بغنائه ، وتوسط دجلة يوماً وغنّى فلم يبق أحد إلا بكى ، وكان غناؤه أحياناً يسرّ من جماله كل قلب[٥] . وغنى الأمير إبراهيم بن المهدى مرة فى مجلس المأمون فأحسن ،

---

(١) الموشى ص ١٣١ ، وبتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٠ (؟) .

(٢) اليتيمة ج ٣ ص ١٢٩ .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٨ : الجنك والعود ، القانون والمزمار ، ويذكر التنوخى (هامش المستطرف ج ٢ ص ١٤٤) أنها العود والطاوس والمزمار والجنك ؛ وانظر فيما يتعلق بالإيقاع الموسيقى ودرجاته والرقص وأنواعه وشمائله والصيغات المحمودة من الراقص فى طباعه وخلقه وعمله مروج الذهب ج ٨ ص ١٠٠ وما بعدها . وكان الرقص يسمى بأسماء الموسيقى من خفيف ورمل وهزج وخفيف الثقيل الأول أحياناً أو يسمى بأسماء خاصة من نحو رقص الجمل أو رقص الكرة ونحوها أحياناً أخرى .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٩٣ ، وكان ذلك حوالى عام ٣٠٠ هـ .

(٥) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .

وكان فى المجلس كاتب من كتاب طاهر بن الحسين يُكنى أبا زيد ، وكان قد بعثه فى بعض أموره ، فطرب أبو زيد ، فأخذ بطرف ثوب إبراهيم[(١)] فقبّله ، فنظر إليه المأمون كالمنكر لما فعل ، فقال له أبو زيد : ما تنظر ! أقبله والله ولو قتلت ، فتبسم المأمون[(٢)] . وفى أواسط القرن الثالث الهجرى نزل عبيد الله بن طاهر عند المعتز فأراه أشياء عجيبة منها أنه أسمعه غناء سارية وزمر زنام الزامر ؛ وأدخله إلى شباك ، وأمر أن يجمع بين السبع والفيل فرأى تواثبهما ، ثم سأله أى أطرف فيما رأى ، فقال : غناء سارية ، وكان عبيد الله نفسه مما يحسن الشعر[(٣)] ، ويحكى أنه اشتريت من بغداد جارية رائعة الحسن والغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر (توفى تميم عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م) فغنت له وجلسائه فأطربته ، ولم يزل غناؤها يزيده طرباً حتى أفرط جدا فقال لها : تمنّى ما شئت فلك مناك ، فقالت : أتمنى عافية الأمير وبقاءه ، فأعاد عليها ، فتمنت أن تغنى ما غنت ببغداد ، فلم يجد الأمير بدا من الوفاء لها وأرسلها إلى بغداد ، فلما فارقتها أفلتت ممن أرسلت معهم ، وبقى الأمير بمصر ذاكراً لها واجماً عليها[(٤)] . وثَمّ حكايات كثيرة من هذا القبيل . وكان يعترى البعض عند سماعه الغناء تأثر شديد ، فكان أحدهم يمزق ثيابه ، ويدقّ الحائط برأسه ، ومنهم من كان يتمرّغ فى التراب ، ويهيج ويزبد ويعض بنانه ، ويركل برجله ، ويلطم وجهه[(٥)] . وكانت تذكر على الشراب وتستحسن الحكايات

---

(١) كان إبراهيم ممن رُشح للخلافة وخرج على المأمون فقبض عليه .

(٢) كتاب بغداد لطيفور ص ١٩٢ .

(٣) كتاب الديارات الشابشتى ص ٤٤ أ — ب .

(٤) المنتظم لابن الجوزى ص ١١٤ أ — ب .

(٥) حكاية أبى القاسم ص ٧٨ وما بعدها ، يقول ستندهال : إن الغناء الحقيق فى جمال الموسيق ؛ وهو مضحك نادر فى فرنسا أو يعتبر فى العادة ضربا من الادعاء ، يشاهده الإنسان كلما خطا فى إيطاليا ، فلما كنت معسكراً بمدينة بريشيا قدمت لرجل يعتبر أكثر أهل السكان تأثراً بالموسيق ، وهو رقيق جدا وعظيم الأدب ، ولكنه كان إذا حضر حفلة

القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث التى تتجلى فيها اللباقة العقلية . فيحكى عن طاهر ذى اليمينين (حوالى عام ٢٠٠ هـ) أنه كان إذا تغدّى مع أصحابه وخرج عن حد الجدّ يسطو فى أخبار العامة وما يحسن من الهزل[1] . أما الحكايات الطوال التى يفنى باقتصاصها زمان المجلس ، وتتعلق بها النفوس ، وتحبس على أواخرها الكؤوس ، فكان ينبغى التنكب عنها لأنها بمجالس القصاص أولى منها بمجالس الخواص[2] . يقول ابن المعتز[3] :

ونداماى فى شباب وحسن   ألقت حالهم نفوس كرام
بين أقداحهم حديث قصير   هو سحر وما سواه كلام
وكأن السقاة بين الندامى   ألفات على سطور قيام

وكان البعض يؤثرون هذه اللذة — لذة محادثة الرجال — إيثاراً شديداً ، فيحكى عن متيّم — وكانت جارية من آدب الجوارى فى زمانها — أنها سألت مسلماً المعروف بالمتيم : أى الأمور عنده ألذ وأشهى ، لمحادثة الرجال أم استماع الغناء أم الخلوة بالنساء ، فقال : محادثة الرجال[4] . ويقول المسعودى : قالوا فى المثل : الحديث ذو شجون . يريدون بذلك تشعّبه وتفرّعه عن أصل واحد إلى وجوه من المعانى كثيرة إذ كان العيش كله فى الجليس الممتع[5] . وقال الأخشيد مرة للشاعر سعيد المعروف بقاضى البقر : حدثنى بحديث صغير .... صغير بطول

= موسيقية وأخذ منه الطرب إلى درجة ما ، خلع نعله من غير أن يشعر ، فاذا وصل الموسيقيون إلى قطعة بالغة الجمال لم يغفل قط عن رمى نعليه وراءه على السامعين . ورأيت فى بولندة أشح الناس يرمى بماله إلى الأرض إذا بلغت منه الموسيقى مبلغها (Stendhal, vie de Rossini, p. 18)

(١) كتاب بغداد لطيفور ص ١٠٨ .

(٢) أدب النديم لكشاجم ص ١٤٣ ا ؛ ومروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣ .

(٤) أدب النديم لكشاجم ص ٤٠ ا — ب

(٥) مروج الذهب ج ٦ ص ١٣١ — ١٣٢ .

الإصبع[١] ، فهو مشتاق للحديث كأنه طفل صغير . وكان الأدباء — من له ملكة شعرية ومن ليس له — يرتجلون القصائد القصيرة فى وصف الزهر وآنية الشراب الجميلة والمغنين والمغنيات والسماء ، ويُحكى أنه أُحضرت فى مجلس لأصحاب الشاعر الكبير أبى الطيب صورة دمية تدور حول نفسها وقد رفعت أحد ساقيها وأمسكت بيديها باقة زهر ، فكانت كلما أدارت وجهها نحو أحدهم شرب على ذلك ثم دفعها لتدور ، وكان المتنبى كلما جاء دوره يقول فيها بعض الشعر[٢] .

وكان شرب النبيذ مقللاً لانتشار المخدرات الأخرى ، فالكلام فى تناول الحشيش لم يظهر فى مؤلفات الفقهاء إلا فى القرن الثالث الهجرى ، وقد حرّمه الشافعية وأباحه الحنفية[٣] ؛ ولا نجد له ذكراً فى الحكايات المأثورة من القرن الرابع . ويدل تاريخ الحشاشين على أن تناول الحشيش كان يعتبر شيئاً جديداً كل الجدة عند العامة ، أما الشاى الصينى فلم يكن قد استعمل للشراب فى ذلك العصر ، وإن كان أحد الرحالين قد حكى فى وصفه للصين فى كتاب كتبه حوالى عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م أن الشاى كانت تدفع عليه المكوس كغيره من الأشياء[٤] . ولا نجد أن التدخين بأى نوع من أنواعه كان من أنواع اللذات ، ولكن كان الطين يمضغ (انظر الفصل الخاص بالحاصلات) . ويحكى المسعودى فى أوائل القرن الرابع الهجرى أنه كان يأتى من الهند ورق القابتول ليمضغ ، وأنه فى ذلك العصر غلب مضغه على أهل مكة وغيرهم من الحجاز واليمن بدلا من الطين[٥] .

وكان الماء المثلّج أكبر لذة للناس فى فصل الصيف ، ويحكى أنه لما ولى

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٣٣ . (٢) ديوان المتنبى ص ٩٦٠ وما بعدها .

(٣) المخلاة للعاملى ص ١٨٦ . (٤) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ٤١ ، ولم يكن قد استعمل فى الصين قبل ذلك بزمن طويل ، وأول ما فرضت عليه الرسوم كان عام ٧٩٣ م (Pfizmaier, SWA, 67, 422).

(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٨٤ .

ابن الفرات الوزارة ، وكان اليوم الذى خُلع عليه فيه شديد الحرّ ، سقى فى داره أربعون ألف رطل من الثلج فى يوم وليلة(١) . وكان الكبراء يحملون الثلج فى حرّاقاتهم(٢) . وكان الثلج يحمل من الشام إلى قصر كافور الأخشيدى بمصر ليستعمل فى تبريد المشروبات(٣) . وكان يدخل إلى دار ابن عمار الوصى على الحاكم بأمر الله والوسيط بينه وبين الناس نصف حمل ثلجاً فى كل يوم ، وذلك فى أواخر القرن الرابع الهجرى(٤) . أما فى مكة(٥) والبصرة فلم يكن الثلج ميسوراً . يقول أبو إسحاق الصابى :

لهف نفسى على المقام ببغدا ... د وشربى من ماء كوز بثلج
نحن بالبصرة الذميمة نُسقى ... شر سقيا من مائها الأترجّى
أصفر منكر ثقيل غليظ ... خاثر مثل حقنة القولنج
كيف نرضى بشربه وبخير ... منه فى كُنف أرضنا نستنجى(٦)

وقد حكى التنوخى حكاية جماعة من الكتاب كانوا قاصدين مصر للتصرّف ، فلما وصلوا دمشق أقبلوا يخترقون الطرق لا يدرون أين ينزلون ، حتى اجتازوا برجل شاب حسن الوجه جالس على باب دار شاهقة وبناء فسيح ، وبين يديه غلمان ، فدعاهم إلى النزول عنده وألح عليهم ، فاستحوا من حسن ظاهره وهيئته وقبلوا الدعوة ، فأكرمهم إكراماً طريباً فى بابه ، وضيّفهم بضروب من الإضافة تذكر لغرابتها ، فأقبل غلمان هذا الرجل وحملوا متاع الكتاب ولم يدعوا غلمانهم يخدمونهم ،

---

(١) هروب ص ٦١ . (٢) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٤٤٧ .
(٣) مطالع البدور للغزولى ج ٢ ص ٧١ .
(٤) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣٦ . (٥) كتاب الفرج بعد الشدة .
(٦) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٧ ، ويقول ابن الأثير (ج ٩ ص ١٦) أن السلطان عضد الدولة منع من عمل الثلج والقز وجعلهما متجرا للخاص ، أليس يجوز أن [illegible] النص مصحفين كلمة ثلج بكلمة ملح ؟

وأحضروا لهم الطسوت والأباريق نغسلوا وجوههم ، ثم أجلسوهم فى مجلس حسن مفروش بأنواع الفرش ، وإذا الدار فى نهاية الحسن ، ثم عرض عليهم الحمام فدخلوه ، ودخل معهم غلمان مُرْد وصبيان فى نهاية الحسن ، نخدموهم بدلا من القيم ، ثم خرجوا إلى مجلس آخر ، وقدمت إليهم مائدة حسنة عليها خير ألوان الطعام فأكلوا ، ثم دخل إليهم غلامان أمردان فى نهاية الحسن فغمزوا أرجلهم ، حتى لحقهم من ذلك مع الغربة وطول العهد بالجماع عنت ، فأمروهم بالانصراف ، وتعففوا عن التعرض لهم لنزولهم على صاحبهم . ثم أخذوا إلى مجلس فى بستان حسن ، وأحضرت الأنبذة الطيبة ، فشربوا أقداحا يسيرة ، ثم ضرب صاحب الدار بيده على ستارة ممدودة ، وإذا جوارٍ خلفها ، فأمرهن بالغناء فغنين أحسن غناء ، فلما توسطوا الشراب قال صاحب الدار للجوازى : « ما هذا الاحتشام لأضيافنا أعزهم الله ! أخْرُجْنَ » ، وهتك الستارة ، فخرج عليهم جوارٍ لم يُرَ قط أحسن ولا أملح ولا أظرف منهن ، ما بين عوادة وطنبورية وزامرة وصناجة ورقاصة ودفافة بفاخر الثياب والحلى ، وأحطن بالضيوف ، فاشتدت محبتهم لهن ، ولكنهم ضبطوا أنفسهم ، فلما كادوا أن يسكروا ومضى بعض الليل أقبل عليهم صاحب الدار وقال : يا سادة ! إن تمام الضيافة وحقها الوفاء بشرطها ، وأن يقوم المضيف بحق الضيف فى جميع ما يحتاج إليه من طعام وشراب وجماع ، وقد أنفذت إليكم نصف النهار الغلمان فأخبرونى بعفافكم عنهم ، فقلت : هم أصحاب نساء ، فأخرجت هؤلاء ، فرأيت من انقباضكم عن ممازحتهن مالو خلوتم بهن كانت الصورة واحدة ، فما هذا ؟ فقالوا : يا سيدى أجللناك عن تبذل ما فى دارك ، وفينا من لا يستحل الحرام ، فقال : هؤلاء مماليكى ، وهن أحرار لوجه الله تعالى ، وإن كان لابد من أن يأخذ كل واحد منكم بيد واحدة ويتمتع بها ليلة ، فمن شاء زوجته بها ومن شاء غير ذلك فهو أبصر ، لأكون قد قضيت حق الضيافة ، فلما سمعوا ذلك ،

وقد انتشوا طربا ، أخذ كل واحد منهم بيد واحدة وأجلسها إلى جانبه ، وأقبل يقبلها ويقرصها ويمازحها ، فنهم من تزوّج ومنهم من لم يفعل ، وجلس معهم ساعة ثم نهض ، فإذا بخدم قد جاءوا فأدخلوا كل واحد وصاحبته إلى بيت فى نهاية الحسن مفروش بفاخر الفرش وتركوا معهما ما يحتاجان إليـه فباتا فى أرغد عيش ، فلما جاء الصباح جاء الخدم وعرضوا عليهم الحمام ، فدخلوه ودخل معهم المردان ، فنهم من أطلق نفسه معهم فيما كان امتنع منه بالأمس ، وخرجوا فبُخّروا بالندّ وأعطوا الماورد والمسك والكافور ، وكذلك كان حال غلمان الضيوف كحال سادتهم ، ذلك أنهم قدمت إليهم الجوارى الروميات فوطئوهن ، وأقبل بعضهم على بعض يقص حكايته حتى حسبوا أنفسهم فى منام لا فى يقظة ، فأقبل عليهم صاحب الدار وسألهم عن ليلتهم فوصفوها فسألهم : أيما أحب إليكم الركوب إلى بعض البسـاتين للتفرج حتى يجيء وقت الطعام أو اللعب بالشطرنج والنرد أو النظر فى الدفاتر ؟ فاشتغل كل منهم بما أحب ، ثم أحضرت لهم مائدة كمائدة الأمس ، فأكلوا ، ثم تكرر ما حدث بالأمس من أمر المردان والجوارى ، وقد زال الاحتشام ودام أصحابنا على هذه الحالة أسبوعا[1] .

وكان الفقهاء فى البداية لا يجيزون لعب الشطرنج ، ثم تساهلوا فى أمره ، ويُذكر أن من رشـيق فتاوى سهل بن أبى سهل مفتى نيسابور المتوفى عام ٤٠٤ هـ — ١٠١٣م فى الشطرنج : إذا سلم المال من الخسران ، والصلاة عن النسيان ، فذلك أنس بين الخلان[2] . وكان الصولى حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢م

---

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى على هامش المستطرف طبعة مصر ١٣٠٨ هـ ج ٢ ص ٢٦٣ — ٢٦٩ .

(٢) طبقات السبكى ج ٣ ص ١٧٢ ؛ وسئل أبو العباس شريح عن الشطرنج ، فقال : إذا سلمت أيديهما من الطغيان ، ولسانهما من العدوان ، وصلواتهما من النسيان ، فهو مباح بين الإخوان ، غير محرم على الخلان — محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٧ .

أحسن لاعب للشطرنج ، وقد مهّد له ذلك دخول دار الخلافة[١] وكان من الشطرنج نوع يُلعب فى قصر الخليفة المعتضد حوالى آخر القرن الثالث الهجرى يسمى اللعب بالجوارح أو الجوارحية ؛ فيه كل حاسة من حواس الإنسان تنافس الأخرى[٢] ، ولم يكن جلوس اللاعبين صامتين بعضهم إلى جانب بعض من عادات العرب ، وكان العربى القح يشعر بما فى ذلك من غرابة عن طباعه ، ويحكى أن أهل المدينة كانوا لا يزوّجون لاعب الشطرنج ، وقال العرب إنما وضع الشطرنج للعجم الذين لا علم لهم ؛ لأنهم كانوا إذا اجتمعوا تلاحظوا تلاحظ البقر فجعلوا لعب الشطرنج مشغلة[٣] . أما العرب فكان أعظم شىء عندهم الموسيقى والإيقاع مع الغناء إلى جانب ما امتازوا به من الأمثال والنوادر اللطيفة والعبارات البليغة ، ويحكى عن الخليفة المأمون بعد قدومه من خراسان وارتقائه عرش الخلافة أنه اشتهى الشطرنج ، فاستحضر كبار أهله ، فكانوا يتوقّرون بين يديه حتى ضاق بذلك وقال : إن الشطرنج لايُلعب مع الهيبة ؛ قولوا ما تقولون إذا خلوتم[٤] . ونوادر الشطرنج التى وردت فى كتاب حكاية أبى القاسم مأخوذة من مجالس الشطرنج[٥] ، وكان الغالب فى لعب الشطرنج يتطلع إلى شىء من المتاع كأن تُعمل بعده أكلة طيبة[٦] ؛ أما النرد ، وهو يُلعب على رقعة بها اثنا عشر أو أربعة

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٣١١ ؛ وكان الشطرنج يلعب على ورقة مربعة حمراء من أدم (مروج الذهب ج ٨ ص ٣١٦ ؛ وكتاب بغداد لطيفور ص ٢٩٣) ، ويذكر المسعودى فى مروج (ج ٨ ص ٣١٣ وما بعدها) آلات الشطرنج على اختلاف هيئاتها ، فيذكر إلى جانب الآلة المربعة المشهورة عندنا آلة مستطيلة وآلة مدورة منسوبة إلى الروم ، وأخرى تسمى النجومية أو الفلكية وأبياتها اثنا عشر على عدد بروج الفلك ؛ فيها ينقل سبعة أمثلة مختلفة الألوان على عدد الخمسة الأنجم والنيرين وعلى ألوانها ، وهذا ما يقوله المسعودى عام ٣٣٢ هـ .

(٢) مروج الذهب ج ٨ ص ٣١٤ ، والفهرست ص ١٣١ .

(٣) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٨ . (٤) نفس المصدر ص ٤٤٩ .

(٥) حكاية أبى القاسم ص ٩٣ وما بعدها .

(٦) كتاب الديارات ص ٣٥ ب .

وعشرون منزلاً بثلاثين حجراً وفصّين ، فكان لعبة تدور على الصدفة والاتفاق . وشبّه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممّهدة لساكنها ، ومنازل الرقعة ، وهى أربعة وعشرون ، بساعات الليل والنهار ، وبيادتها وهى ثلاثون بعدد أيام الشهر ، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل ، ومنازلها الأربع بالطبائع الأربع ، وهكذا ، وشبّه ما يخرج من الفصين إذا رمى بهما بالقضاء الجارى على العباد ؛ ولهذا ظل أهل الورع ساخطين عليه ، ويسميه أبو الليث السمرقندى « عمل الشيطان » هو وسباق الحير والصيد بالكلاب ومهارشة الكباش والديوك .

وكان النرد يلعب ابتغاء الكسب صراحة ، فيحكى أن رجلاً لاعب آخر فغلبه ، فأخذ منه عشرين ديناراً . ويحكى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سابق بين الخيل ، ويروى عنه عليه السلام فى روايات كثيرة أنه قال : لا تحضر الملائكة من اللهو شيئاً إلا ثلاثة : لهو الرجل مع امرأته ، وإجراء الخيل ، والنضال . غير أن الفقهاء اشترطوا فى هذه الرياضة التى أباحوها وهى مسابقة الخيل ألا تُلعب طلباً للمال ، وكان سباق الخيل كثيراً بمصر ، وبلغ من شغف الناس به وتقديرهم له أن السابق كان يأخذ حصان المسبوق ؛ وذلك عام ١٩٠هـ — ٩٠٦م ، وتولى على مصر يزيد بن عبد الله التركى عام ٢٤٢هـ — ٨٥٦م ، وكان متشدداً فعطّل الرهان ، وأمر ببيع الخيل التى كانت تُتّخذ للسلطان[١] ؛ وكانت هذه الخيل يُنفق عليها من مال الدولة على العادة الجارية قبل الإسلام ؛ ولكن الخيل جرت من جديد عام ٢٤٩هـ — ٨٦٣م[٢] . وكانت حلبة السباق فى أيام خمارويه تقوم مقام الأعياد[٣] . وفى عام ٣٢٤هـ شرع الأخشيد فى إجراء حلبة السباق

---

(١) الولاة للكندى ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .   (٢) نفس المصدر ص ٢٠٢ .

(٣) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٢٨ .

على رسم أحمد بن طولون[١] ، ويذكر المسعودي أن لعيسى بن لهيعة المصري كتاباً يسمى كتاب الجلائب والحلائب ذكر فيه كل حلبة أجريت في الجاهلية والإسلام[٢].

وكان الناس مولعين بسباق الحمام رغم إنكار الفقهاء له[٣] ، وكان منتشراً في مصر ، وزاد كثيراً في القرن الخامس الهجري . ويُحكى عن الخليفة المعز أنه سابق بحمامه حمامَ الوزير أبي الفرج يعقوب ، فسبق حمامُه حمامَ الخليفة ، فعظم ذلك على المعز[٤] ، وكذلك كان البعض يحارش بين الكباش والديوك والكلاب[٥] وكان عند سبكتكين التركي قائد جيوش السلطان معز الدولة كبش قوي النطاح وقد ذكره ابن الحجاج في شعره ، وتمنى لو ترك لينطح زوجاً كريه الصورة لمغنية كان متعلقاً بها[٦] . وكان بعض الناس يلعبون بالسمان[٧] بل نجد الناس اليوم مولعين بالمهارشة بين هذا الطير في تركستان ولعاً شديداً ، حتى إن رجلا يملك هذه الطيور صار رجلا ذا شأن بتلك البلاد ، وقد استطاع أن ينور بحياة رغدة بالمهارشة بين طيوره[٨] . وكان القمار أكثر ما يلعب بفصي النرد[٩] ، وقد شغف الناس بذلك رغم تحريم القرآن للقمار . بل يُحكى من أخبار عصر النبي عليه السلام أن أبا لهب قامر العاصي بن هشام فقمره حتى أخرجه من ماله ، ثم عرض عليه العاصي أن يقامره فأيهما قمر كان عبداً لصاحبه[١٠] . ورُوى عن ابن جامع

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ١٨ .
(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥ .
(٣) Goldziher, AFR, VII, p. 422.
(٤) مطالع البدور للغزولي ج ٢ ص ٢٦٠ .
(٥) كتاب بغداد لطيفور ص ٣٨ أ ، والتذكرة الحمدونية مخطوط باريسي رقم ٣٣٢٤ ص ٢٥ أ ، ومروج الذهب ج ٨ ص ٢٣٠ ، ٢٧٩ .
(٦) ديوان ابن الحجاج مخطوط ببغداد ص ١٤١ .
(٧) مروج الذهب ج ٨ ص ٢٧٩ .
(٨) V. Schwarz, Turkestan, S. 290.
(٩) انظر مثلا كتاب بغداد لطيفور ص ٣٨ أ .
(١٠) الأغاني ج ٣ ص ١٠٠

المغنى فى عصر الرشيد أنه قال : « لولا أبى القمار وحب الكلاب شغلانى لتركت المغنين لا يأكلون الخبز[١] . ويحكى عن الشريف الرضى فى أواخر القرن الرابع الهجرى أنه عاقب أحد العلويين وأفرط فى معاقبته لأنه كان يقامر بما يتحصل له من حرفة يعانيها ويترك أطفاله محتاجين[٢] . وكانت مراقبة دور القمار ومنعها من جملة المهام التى يقوم بها المحتسب[٣] . وكان بمصر شيوخ يسمون المطمِّعين ؛ لهم جراية من دور القمار ليجلبوا الناس إليها ويطمعونهم فى اللعب . وقد حكى ابن سعيد : أن الأخشيد فى وقت من الأوقات أمر بهدم المواخير ودور المقامرين والقبض عليهم فأخذوا ، وأدخل عليه جماعة منهم وعرضوا عليه وفيهم شيخ له هيئة ، فقال : هذا الشيخ مقامر ؟ فقالوا : هذا يقال له المطمع ، فقال الأخشيد : وإيش المطمع ؟ قالوا : هو سبب عمارة دار القمار ، وذلك أن الواحد إذا قمر ما معه ، قال له : العب على ردائك ، فلعلك تغلب ، فإذا ذهب رداؤه قال له : إلعب على قميصك حتى تغلب به كل شىء ، حتى يبلغ إلى نعليه ، وربما اقترض له ، ولهذا الشيخ جراية يأخذها على ذلك كل يوم من متقبل دار القمار ، فضحك الأخشيد وقال : يا شيخ ! تُبْ إلى الله وحده من هذا ؛ فتاب وأمر له الأخشيد بثوب ورداء وألف درهم ، وقال يجرى عليه فى كل شهر عشرة دنانير ، فانصرف الشيخ شاكراً داعياً فقال : ردّوه ، وقال : خذوا ما أعطيناه وابطحوه فضربه مائتى عصا ثم قال : خلوه ، أين هذا من تطميعك[٤] ؟

أما الرياضة التى كان أكثر ما يشتغل بها الكبراء والوزراء فكانت اللعب بالصوالجة ، كما هو الحال عندنا اليوم ، واللعب بالصوالجة هو ضرب كرة من على

---

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٧٠ . (٢) ديوان الشريف الرضى ص ٣ من المقدمة .
(٣) الأحكام السلطانية للماوردى طبعة أنجر ص ٤٠٤ .
(٤) المغرب لابن سعيد ص ٣٠ .

ظهور الخيل وأصلها فارسى[١] . وكان الخلفاء يلعبون بالصوالجة فى ميادين خاصة فى قصورهم[٢] . ويحكى أنه فى سنة ٣٦٣ هـ دخل الوزير أبو الحسين عبد الله بن يحيى بن خاقان التركى ميداناً فى داره يوم الجمعة ليضرب الصوالجة ؛ فركب ولعب فصدمه خادمه وسقط من على دابته ميتاً[٣] . وكان اللاعبون بعد الفراغ من لعبهم يدخلون الحمام الساخن ويدلكون[٤] . ومن إجادة الضرب بالصوالجة ؛ أن يضرب اللاعب الكرة ضربة خلسة ، ويكون ضربه متشازراً مترفقاً مترسلا ، وأن يتوخى الضرب للكرة تحت مخزم الدابة من قبل ليها فى رفق ، وألا يستعين بسوط ، وألا يؤثر فى الأرض بالصولجان أو يكسره أو يعقر قوائم دابته ، وعليه أن يحترس من إيذاء من جرى معه فى الميدان ، وأن يحسن الكف للدابة فى شدة جريانه ، متوقياً من الصرعة والصدمة فى تلك الحال ، وأن يجانب الغضب ويتحفظ من إلقاء كرة على ظهر بيت ، وإن كان ست كرين بدرهم ، وأن يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان ، لأن غرض الميدان إنما جعل ستين ذراعاً لئلا يحال ولا يصال من جلس على حائطه[٥] . أما الديلم فكانوا شعباً جبليا ، فآثروا الرياضة البدنية البسيطة ، فيحكى أن معز الدولة لما جاء إلى بغداد اشتهى رؤية الصراع ؛ فكان يعمل بحضرته حلقة فى ميدان ، فتقام شجرة وتجعل عليها ثياب الديباج والمروى ونحوهما ، وتوضع تحتها أكياس فيها دراهم ، ويقف

---

(١) يجد القارئ وصفا حسنا لهذه اللعبة كتبه أحد مؤرخى الروم وذلك فى كتاب كاترمير Quatremère, Hist. des Mamelouks I, p. 11 f.

(٢) كتاب الوزراء ص ١٣٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٨ من طبعة ليدن ، وفى عام ٣١٥ هـ — ٩٢٧ م سقط أسفار بن شيرويه والى جرجان من على دابته وهو يلعب الكرة فمات (زبدة الفكرة ص ٢٠٣ ب) . (٤) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٢٧ .

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة بروكلمان ص ١٦٦ — ١٦٧ . نقلا عن كتاب العيون والحدائق .

على سور الميدان أصحاب الطبول والزمور ، وعلى الباب أصحاب الدبادب ، ثم يؤذن للعامة فى دخول الميدان ، فمن غلب أخذ الثياب والشجرة والدراهم ؛ ثم دخل فى ذلك أحداث بغداد حتى صار بكل موضع صراع ، فإذا برع أحدهم صارع بحضرة معز الدولة ، فإن غلب أجريت عليه الجرايات ؛ فكم من عين ذهبت بلطمة وكم من رجل اندقت . وشغف شبان معز الدولة بالسباحة فتعاطاها أهل بغداد حتى أحدثوا فيها الطرائف ، فكان الشاب يسبح قائماً وعلى يده كانون فوقه حطب يستعمل تحت قدر إلى أن ينضج ؛ ثم يأكل من القدر إلى أن يصل دار السلطان[١] .

على أنه بالرغم من كل هذه الرياضات بقى الصيد محتفظا بكل ماله من شأن ، بل ظهرت فى تمجيده قصائد خاصة[٢] ، إلا أن معظمها يدور حول مدح كلاب الصيد ووصفها ، وكان أشهر الوحوش الضارية هو الأسد ، ولم تكن السباع فى ذلك العصر نادرة بالشام ، ولا على شواطئ نهرى الدجلة والفرات ؛ بل كانت أحيانا تدنو قريباً جدا من بغداد ، حتى يحكى أنه فى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٣ م خرج الخليفة المتقى إلى الشماسية بجوار بغداد لصيد السباع[٣] . ويحكى عن خمارويه صاحب مصر أنه كان لا يسمع بأسد إلا بحث فى طلبه[٤] . وكانت قصص السباع وصيدها تحتل مكاناً كبيراً من أحاديث التسلية[٥] . وكانت إذا اختفت آثار رجل فى طريق فأول ما يتبادر إلى الذهن أن يقال أكله الأسد[٦] . كان بقصر الخليفة

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ٥٧٣ — ٧٤ أ .

(٢) تسمى قصائد الصيد بالقصائد الطردية ، ولم تستعمل كلمة طرد فى معنى الصيد إلا عند المتأخرين ، ويقول (Lane) إن أول من استعملها الزمخشرى ، وأصلها شامى ، وكان أهل غرب الشام يستعملون كلمة طارد بدلا من كلمة صاد . انظر كتاب : Barhebraeus, Buch der Strahlen, S. 30 (ترجمة موبرج Moberg)

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ٧١ أ ؛ وفيما يتعلق بالشام راجع قصائد المتنبى فى الصيد .

(٤) الخطط ص ٣١٦ . (٥) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٧٠ وما بعدها .

(٦) رسائل أبى العلاء طبعة مرجليوث ص ٢٦ .

بسامرَّا على عهد المعتصم مكان يُحفظ به الحيوان ، وهو يسمى حير الوحش[١] ويحكى عن المعتز حوالى منتصف القرن الثالث الهجري أنه أطلع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد نزل ضيفا عنده عراكا بين أسد وفيل ، وكان ذلك أحد العجائب التى أطلعه عليها[٢] . ولكن حب الاطلاع على غرائب الحيوان زاد حتى صار اهتماما كبيراً به ، فيُحكى عن خمارويه بن أحمد بن طولون أنه بنى فى داره الكبيرة موضعاً للسباع ، وعمل فيه بيوتا ، كل بيت لسبع لا يسع غير السبع ولبؤته[٣] . وكان فى قصر الخليفة المقتدر ببغداد حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م دار بها قطعان من أصناف الوحش[٤] ، وصار يرسل إليها كل غريب من الحيوان من جميع البلاد . وكان جعفر بن الفضل بن الفرات الوزير بمصر المعروف بابن حنزابة المتوفى عام ٣٩١هـ يهوى النظر إلى الأفاعى والحيات والعقارب وما يجرى مجراها من الحشرات ، وكان فى داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيّات ، ولها قيِّم فراش حاوٍ من الحواة ومعه مستخدمون ، وكان كل حاوٍ فى مصر وأعمالها يصيد له ما يقدر عليه ، وكان الوزير يثيبهم ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا فى تحصيلها ، وذات يوم انساب إلى دار ابن المدبر الكاتب — وكان يسكن إلى جوار الوزير — الحيّة البتراء وذات القرنين الكبرى والعقربان الكبير وأبو صوفة ، فكتب إليه أن يأمر حاشيته وصبيته بعون ما يوجد منها إلى أن ينفذ الحواة لأخذها ، فلما وقف ابن المدبر على ما فى الخطاب قلبه وكتب فى ذيله : أتانى أمر مولانا الوزير أدام الله نعمته وحرس مدته بما أشار به فى أمر الحشرات ، والذى يعتمد عليه فى ذلك أن الطلاق يلزمنى ثلاثا إن بتُّ أنا أو أحد من أولادي فى الدار والسلام[٥] .

(١) الأغانى ج ١٠ ص ١٢٠ .
(٢) كتاب الديارات ص ٢٤ ب .
(٣) النـ... الزاهرة ٣ ص ٦٠
(٤) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٣ .
(٥) ... ، ٤٠٩ — ٤١٠ ، الخطط ص ٣١٦ .

وكان اللعب بالخيال معروفا ، فكان لأحد طباخى المأمون ابن يُسمّى عبادة ، وكان من أطيب الناس ، وأخفهم روحا وأحضرهم نادرة ، قال له دعبل يوما : والله لأهجونك ، قال : والله لئن فعلت لأخرجن أمك فى الخيال [١] . وكذلك كان الناس بمصر يخرجون فى بعض الأعياد ، ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات [٢] وكان ثمّ مقلدون بالمعنى الصحيح أيضاً ، وكان يسمى الحاكية ، وكان التقليد والحاكاة يعتبران فنين جديرين بالعناية ؛ فكان ببغداد رجل يعرف بابن المغازلى يقف على الطريق ويقص على الناس أنواع الأخبار والنوادر المضحكة ، وكان فى نهاية الحذق يقلد كل طوائف الناس ؛ فلا يدع حكاية أعرابى أو نجدى أو نبطى أو زطى أو زنجى أو سندى أو تركى أو خادم إلا حكاها ، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكول وتصبى الحليم ، وقد سمع المعتضد بنوادره فأعجب بها وأمر بإحضاره بين يديه [٣] . وفى القرن الرابع الهجرى كان أبو الورد من عجائب الدنيا فى المطايبة والحاكاة ، وكان يخدم الوزير المهلبى ، ويحكى شمائل الناس وألسنتهم فيؤديها كما هى فيعجب الناظر والسامع ويضحك الثكلان [٤] . وفى القرن الخامس الهجرى نجد محمد بن أحمد أبا المطهر الأزدى يؤلف كتابا سماه حكاية أبى القاسم البغدادى جعل فيه مثل هذه الحاكاة والتمثيل موضوعا للأدب ، وجعل ذلك وسيلة لوصف أخلاق عامة بغداد وكلامهم القبيح ، وكل ذلك فى شخص أبى القاسم هذا [٥] . ويذكر لنا الرحالة فون فيردى V. Werde أنه شاهد

(١) كتاب الديارات ص ٨١ أ .
(٢) الخطط ج ١ ص ٢٠٧ نقلا عن المسبحى المتوفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م .
(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ١٦١ وما بعدها ، وقد أضيفت هذه القصة فى المستطرف (ج ٢ ص ٢٠٣) إلى شخصية أكثر جاذبية هى شخصية الرشيد . وتكلم عن الحاكية الجاحظ فى البيان والتبيين (ج ١ ص ٣١) والثعالبي فى محمد المنسوب .ZDMG, V .
(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٢ ، وكتاب محمد المنسوب .ZDMG, V .
(٥) نشر حكاية أبى القاسم متز Mez مؤلف هذا الكتاب .

بحضرموت حاكياً هزليا يقلد أفعال الترك والبحريين بل الأعراب[١] ، ويحدثنا سخاو Sachau فى العصر الحديث عن رجل كهذا[٢] . وقد نجد أحيانا ذكر ما يسمى بالسماجات ، فهى تذكرنى مصر فى بعض الأعياد[٣] ، وفى بغداد فى يوم النيروز ، حيث كان أصحاب السماجات يلعبون بين يدى الخليفة وكل منهم متنكر بصورة منكرة[٤] .

---

(١) V. maltzan, II, S, 119

(٢) Esachau, Am Euphrat und Tigris, S. 655 f

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٠٨ نقلا عن المسبحى .

(٤) كتاب الديارات للشابشتى ص ١٥ أ — ب وانظر الفصل الخاص بالأعياد .